المبحث الثالث: مقاصد القرآن ونعم الله على عيسى عليه السلام والتبشير بمحمد ﷺ:

المطلب الأول:

تحريف الكتب الإلهية، وإهمال الهداية

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}[1]

قولـه:**{يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا}**

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقولـه:**{يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ}**، اليهود الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، يختارون الضلالة وذلك: الأخذ على غير طريق الحقّ، وركوبُ غير سبيل الرشد والصواب، مع العلم منهم بقصد السبيل ومنهج الحق وإنما عنى الله بوصفهم باشترائهم الضلالة: مقامهم على التكذيب بمحمد ﷺ، وتركهم الإيمان به، وهم عالمون أنّ السبيل إلى الحقّ الإيمانُ به، وتصديقه بما قد وجدوا من صفته في كتبهم التي عندهم وأما قولـه: "ويريدون أن تضلوا السبيل"، يعني بذلك تعالى ذكره: ويريد هؤلاء اليهود الذين وصَفهم جل ثناؤه بأنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب " أن تضلوا" أنتم، يا معشر أصحاب محمد ﷺ، المصدقين به " أن تضلوا السبيل"، يقول: أن تزولوا عن قصد الطريق ومَحَجَّة الحق، فتكذبوا بمحمد، وتكونوا ضلالا مثلهم

وهذا من الله تعالى ذكره تحذيرٌ منه عبادَه المؤمنين، أن يستنصحوا أحدًا من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم، أو أن يسمعوا شيئًا من طعنهم في الحق

(١) النساء: ٤٤ - ٤٨.

ثم أخبر الله جلّ ثناؤه عن عداوة هؤلاء اليهود الذين نهى المؤمنين أن يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جل ثناؤه: "والله أعلم بأعدائكم"، يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكم بعداوَة هؤلاء اليهود لكم، أيها المؤمنون يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغشّ والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا

وأما قوله: "وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيرًا"، فإنه يقول: فبالله، أيها المؤمنون، فثقوا، وعليه فتوكلوا، وإليه فارغبوا، دون غيره، يكفكم مهمَّكم، وينصركم على أعدائكم "وكفى بالله وليًّا"، يقول: وكفاكم وحسْبكم بالله ربكم وليًّا يليكم ويلي أموركم بالحياطة لكم، والحراسة من أن يستفزّكم أعداؤكم عن دينكم، أو يصدّوكم(١)

فالمقصود من الآية الكريمة: تعجيب المؤمنين من سوء أحوال أولئك الأحبار، وتحذير لهم من موالاتهم أو من الاستماع إلى أكاذيبهم وشبهاتهم

والخطاب لكل من يصلح له من المؤمنين وتوجيهه إلى النبى ﷺ هنا مع توجيهه بعد ذلك إلى الكل - فى قوله:**{أَن تَضِلُّواْ}** - للإيذان بكم الشهرة شناعة حال أولئك اليهود، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها أو يعلمها

وقد وصفهم - سبحانه - بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب، ولم يؤتوا الكتاب كله، لأنهم نسوا حظا كبيراً مما ذكروا به، ولم يبق عندهم من علم الكتاب إلا القليل، وهذا القليل لم يعملوا به بل حرفوه وبدلوه وأخضعوا تفسيره لأهوائهم وشهواتهم

وقوله:**{يَشْتَرُونَ الضلالة وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السبيل}** هو موطن التعجب من شأنهم لأنهم لا يطلبون الضلالة بفتور أو تريث وإنما يطلبونها بشراهة ونهم ويدفعون فيها أغلى الأثمان وهو الهدى، ولا يكتفون بذلك بل يبتغون من المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى الضلال

وقوله:**{والله أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ}** جملة معترضة للتأكيد والتحذير

أى: والله - تعالى - أعلم بأعدائكم منكم - أيها المؤمنون - وقد أخبركم بأحوالهم وبما يبيتون لكم من شرور فاحذروهم ولا تلتفتوا إلى أقوالهم وأعدوا العدة لتأديبهم دفاعا عن

(١) تفسير الطبري: ٨٥.

دينكم وعقيدتكم

وقولـه:**{وكفى بالله وَلِيّاً وكفى بالله نَصِيراً}** تذييل قصد به غرس الطمأنينة فى نفوس المؤمنين بأن العاقبة لهم

أى:**{وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِياً}** يتولى أموركم، ويصلح بالكم،**{وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً}** يدفع عنكم مكرهم وشرورهم؛ وما دام الأمر كذلك فاكتفوا بولايته ونصرته واعتصموا بحبله، وأطيعوا أمره، ولا تكونوا فى ضيق من مكر أعدائكم فإن الله ناصركم عليهم بفضله وإحسانه

وقولـه:**{وَكَفَى}** فعل ماض ولفظ الجلالة فاعل والباء مزيدة فيه لتأكيد الكافية ووليا ونصيرا منصوبان على التمييز وقيل على الحال

وكرر - سبحانه - الفعل كفى لإلقاء الطمأنينة فى قلوب المؤمنين، لأن التكرار فى مثل هذا المقام يكون أكثر تأثيرا فى القلب، وأشد مبالغة فيما سيق الكلام من أجله

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: اكتفوا بولاية الله ونصرته، وكفاكم الله الولاية والنصرة والمعونة ومن كان الله كافيه نصره على عدوه فاطمئنوا ولا تخافوا

ثم ذكر - سبحانه - ألواناً من الأقوال والأعمال القبيحة التى كان اليهود يقولونها ويفعلونها للإساءة إلى النبى ﷺ وإلى المسلمين فقال:**{مِّنَ الذين هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ}** وتحريف الشىء إمالته وتغييره ومنه قولهم: طاعون يحرف القلوب، أى يميلها ويجعلها على حرف، أى جانب وطرف وأصله من الحرف يقال: حرف الشىء عن وجهه، صرفه عنه

من الذين هادوا: قوم أو فريق من صفاتهم أنهم يحرفون الكلم من مواضعه أى يميلونه عن مواضعه، ويجعلون مكانه غيره، ويفسرونه تفسيراً سقيماً بعيداً عن الحق والصواب

قال الفخر الرازى: فى كيفية التحريف وجوه:

أحدها: أنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر مثل تحريفهم اسم " ربعة " عن موضعه فى التوراة بوضعهم " آدم طويل "، وكتحريفهم الرجم بوضعهم الجلد بدله

الثانى: أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة، والتأويلات الفاسدة، وصرف اللفظ

من معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه من الحيل اللفظية، كما يفعله أهل البدعة فى زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم وهذا هو الأصح

الثالث: أنهم كانوا يدخلون على النبى ﷺ ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه

والذى نراه أولى أن تحريف هؤلاء اليهود الكلم عن مواضعه يتناول كل ذلك، لأنهم لم يتركوا وسيلة من وسائل التحريف الباطل إلا فعلوها، أملا منهم فى صرف الناس عن الدعوة الإسلامية، ولكن الله - تعالى - خيب آمالهم

قال الزمخشرى: فإن قلت: كيف قيل ههنا:**{عَن مَّوَاضِعِهِ}** وفى المائدة**{مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ}** قلت: " أما عن مواضعه " فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها، بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه

وأما**{مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ}** فالمعنى أنه كان لـه مواضع فمن بأن يكون فيها فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع لـه بعد مواضعه ومقاره والمعنيان متقاربان

ثـم حكـى - سـبحانه - لونـاً ثانيـاً مـن ضـلالتهم فقـال:**{وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا}** أى ويقولون للنبى ﷺ إذا ما أمرهم بشىء: سمعنا قولك وعصينا أمرك فنحن مع فهمنا لما تقول لا نطيعك لأننا متمسكون باليهودية

ثم حكى - سبحانه - لونـاً ثالثـاً من مكرهم فقال:**{واسمع غَيْرَ مُسْمَعٍ}** وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها وداخلة تحت القول السابق

أى: ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبتهم للنبى ﷺ وهو كلام ذو وجهين وجه محتمل للشر بأن يحمل على معنى " اسمع " حال كونك غير مسمع كلاما ترضاه ووجه محتمل للخير بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاماً تكرهه

فأنت تراهم - لعنهم الله - أنهم كانوا يخاطبون النبى ﷺ بهذا الكلام المحتمل للشر والخير موهمين غيرهم أنهم يريدون الخير، مع أنهم لا يريدون إلا الشر، بسبب ما طفحت به نفوسهم من حسد للنبى ﷺ وللمسلمين

ثم حكى - سبحانه - لونا رابعاً من خبثهم فقال:**{وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدين}**

وهو كلام معطوف على ما قبله وداخل تحت القول السابق[١]

وذكر في موضع آخر أنهم كثير، وأنهم يتمنون ردة المسلمين، وأن السبب الحامل لهم على ذلك إنما هو الحسد وأنهم ما صدر منهم ذلك إلا بعد معرفتهم الحق وهو قوله تعالى:**{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق}**[٢]

وذكر في موضع آخر أن هذا الإضلال الذي يتمنونه للمسلمين لا يقع من المسلمين، وإنما يقع منهم - أعني المتمنين الضلال للمسلمين - وهو قوله:**{وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}**[٣]

قوله جل ثناؤه:**{وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ}**

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عن اليهود الذين كانوا حول مهاجرى رسول الله ﷺ في عصره: أنهم كانوا يسبّون رسول الله ﷺ ويؤذونه بالقبيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كقول القائل للرجل يَسُبُّه: "اسمع، لا أسمعَك الله"**{وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ}**

قال أبو جعفر: يعني بقوله: "وراعنا"، أي: راعنا سمعك، افهم عنّا وأفهمنا[٤]

وبعد أن يحكي القرآن هذا عنهم؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب؛ والأدب الجدير بمن أوتوا نصيباً منه ويطمعهم - بعد ذلك كله - في الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله لو ثابوا إلى الطريق القويم وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم وأنها هكذا كانت وهكذا تكون:**{وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}**

فهم لا يواجهون الحق بهذه الصراحة وهذه النصاعة وهذه الاستقامة ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحة التي لا التواء فيها:**{سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا}**

(١) سيد طنطاوي صفحة / ٨٥.
(٢) البقرة: ١٠٩.
(٣) آل عمران: ٦٩.
(٤) الطبري صفحة / ٨٦.

لكان هذا خيراً لهم، وأقوم لطبيعتهم وأنفسهم وحالهم ولكن واقع الأمر أنهم - بسبب كفرهم - مطرودون من هداية الله فلا يؤمن منهم إلا القليل

وصدق قول الله فلم يدخل في الإسلام - في تاريخه الطويل - إلا القليل من اليهود ممن قسم الله لهم الخير، وأراد لهم الهدى؛ باجتهادهم للخير وسعيهم للهدى أما كتلة اليهود، فقد ظلت طوال أربعة عشر قرناً، حرباً على الإسلام والمسلمين منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة إلى اللحظة الحاضرة وكيدهم للإسلام كان هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المنوع الأشكال والألوان والفنون، منذ ذلك الحين! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله - بما في ذلك كيد الصليبية العالمية والاستعمار بشتى أشكاله - إلا كان من ورائه اليهود أو كان لليهود فيه نصيب!

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب - اليهود - دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم؛ وتهديداً لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم ودمغاً لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص، الذي عليه دينهم، والله لا يغفر أن يشرك به وفي الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة؛ وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وَجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}**

إنه نداء لهم بالصفة التي كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين؛ وبالسبب الذي كان من شأنه أن يكونوا أول المسلمين: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم}**

فهم أوتوا الكتاب، فليس غريباً عليهم هذا الهدى والله الذي آتاهم الكتاب هو الذي يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقاً لما معهم فليس غريباً عليهم كذلك وهو مصدق لما معهم

ولو كان الإيمان بالبينة أو بالأسباب الظاهرة لآمنت يهود أول من آمن ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح وكانت لها أحقاد وعناد وكانت هي بطبعها منحرفة صلبة

الرقبة كما تعبر عنهم التوراة بأنهم: " شعب صلب الرقبة!» ومن ثم لم يؤمن ومن ثم يجيئها التهديد العنيف القاسي:**{مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وَجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً}**

وطمس الوجوه: إزالة معالمها المميزة لآدميتها؛ وردها على أدبارها، دفعها لأن تمشي القهقرى وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادي؛ الذي يفقدهم آدميتهم ويردهم يمشون على أدبارهم؛ ويكون كذلك اللعن الذي أصاب أصحاب السبت (وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت، وهو محرم عليهم في شريعتهم) هو مسخهم بالفعل قردة وخنازير كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم، وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب والكفر بعد الإيمان، والهدى بعد الضلال، طمس للوجوه والبصائر، وارتداد على الأدبار دونه كل ارتداد

سواء كان هذا هو المقصود أو ذاك فهو التهديد الرعيب العنيف؛ الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة!

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد: كعب الأحبار فأسلم: أخرج ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن جليس، عن أبى إدريس عائذ الله الخولاني، قال: كان أبو مسلم الخليلي معلم كعب وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه ينظر: أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة فإذا تال يقرأ القرآن يقول:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وَجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا}** فبادرت الماء فاغتسلت، وإني لأمس وجهي مخافة أن أطمس! ثم أسلمت

والتعقيب على هذا التهديد:**{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً}** فيه توكيد للتهديد، يناسب كذلك طبيعة اليهود!

ثم يجيء تعقيب يتضمن تهديداً آخر في الآخرة تهديداً بعدم المغفرة لجريمة الشرك مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب:**{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً}**

وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك؛ ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد ولا يذكر هنا القول أو الفعل الذي يعده عليهم شركاً وقد ورد في مواضع أخرى تفصيل لهذا: فقد روى القرآن عنهم قولهم:{عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} كقول النصارى:{المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} وهو شرك لا شك فيه! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ} وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان إنما كانوا - فقط - يقرون لهم بحق التشريع حق التحليل والتحريم الحق الخاص بالله، والذي هو من خصائص الألوهية ومن ثم اعتبرهم القرآن مشركين ولهذا الاعتبار قيمة خاصة في التصور الإسلامي الصحيح لحد الإسلام وشرط الإيمان - كما سيجيء في سياق السورة بالتفصيل

وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم في الجزيرة حافلة بالوثنيات، منحرفة عن التوحيد والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك - لمن يشاء - ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركاً به؛ لم يرجع في الدنيا عن شركه

إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون مقطوعوا الصلة بالله رب العالمين وما تشرك النفس بالله، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا - وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل - ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية

سواء كان هذا هو المقصود أو ذاك فهو التهديد الرعيب العنيف؛ الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة!

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد: كعب الأحبار فأسلم:

أخرج ابن أبي حاتم، قال: كان أبو مسلم الخليلي معلم كعب وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه ينظر: أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة فإذا تال يقرأ القرآن يقول:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وَجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} فبادرت الماء فاغتسلت، وإني لأمس وجهي

مخافة أن أطمس! ثم أسلمت

والتعقيب على هذا التهديد:**{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً}**

فيه توكيد للتهديد، يناسب كذلك طبيعة اليهود!

الأماني والعمل:

{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ له مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا}[1]

وساق ابن جرير بسنده:

عن مسروق قال: تفاخر النصارى وأهلُ الإسلام، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! قال: فأنزل الله:**{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ}**[2]

قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالله بن نمير، حدثنا إسماعيل، " عن أبي بكر بن أبي زهير، قال:» أخبرت أن أبا بكر - رضي الله عنه - قال: " يا رسول، الله كيف الفلاح بعد هذه الآية:**{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}**؟ فكل سوء عملناه جزينا به فقال النبي ﷺ : **«غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟»** قال بلى! قال: **«فهو مما تجزون به»** [3] ورواه الحاكم عن طريق سفيان الثوري عن إسماعيل

وروى أبو بكر بن مردويه - بإسناده - إلى " ابن عمر، يحدث عن أبي بكر الصديق قال: كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية:**{مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً}** فقال رسول الله ﷺ : **«يا أبا بكر، ألا أقرئك آية نزلت علي؟»** قال: قلت: بلى يا رسول الله فأقرأنيها فلا أعلم أني قد وجدت انفصاماً في ظهري، حتى تمطيت لها! فقال رسول الله ﷺ : **«مالك يأ أبا بكر»** فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه! فقال رسول الله ﷺ : **«أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم**

(١) النساء: ١٢٣.
(٢) الطبري صفحة / ٩٨.
(٣) مسند أحمد /٦٥.

تجزون بذلك في الدنيا، حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة» (١)

وروى مسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عيينة - بإسناده - " عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لما نزلت:**{مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}** شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ : **«سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها»** (٢)

على أية حال لقد كانت هذه حلقة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء ذات أهمية كبرى في استقامة التصور من ناحية، واستقامة الواقع العملي من ناحية أخرى ولقد هزت هذه الآية كيانهم، ورجفت لها نفوسهم، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جداً ويعرفون صدق وعد الله حقاً ويعيشون هذا الوعد ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا

وفي الختام يجيء التعقيب على قضية العمل والجزاء، وقضية الشرك قبلها والإيمان، برد كل ما في السماوات والأرض لله، وإحاطة الله بكل شيء في الحياة وما بعد الحياة:**{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً}**

وإفراد الله سبحانه بالألوهية يصاحبه في القرآن كثيراً إفراده سبحانه بالملك والهيمنة - والسلطان والقهر، فالتوحيد الإسلامي ليس مجرد توحيد ذات الله وإنما هو توحيد إيجابي توحيد الفاعلية والتأثير في الكون، وتوحيد السلطان والهيمنة أيضاً

ومتى شعرت النفس أن لله ما في السموات وما في الأرض (٣)

* * * * *

(١) سنن الترمذي: ٢٩٦٥ قال أبو عيسى: هذا حديث غريب وفي إسناده مقال وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث ضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل ومولى بن سباع مجهول وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي بكر وليس له إسناد صحيح.
(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: ٢٩٦٤.
(٣) الظلال صفحة / ٩٩.

المطلب الثانى:

أوصاف المسيح في القرآن

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَه وَلَدٌ لَه مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا}[1]

ياأهل الكتاب**{لاَ تَغْلُواْ}** أى: لا تتجاوزوا الحد المشروع مأخوذ من الغلو، وهو - كما يقول القرطبى - التجاوز فى الحد ومنه: غلا السعر يغلو غلاء وغلا الرجل فى الأمر غلوا وغلا الجارية لحمها وعظمها، إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها - أى: أترابها -

وقد تجاوز أهل الكتاب الحد وغالوا فى شأن عيسى أما اليهود فقد أنكروا رسالته واتهموا أمه مريم بما هى منه بريئة

وأما النصارى فقد رفعوا عيسى - عليه السلام - إلى مرتبة فوق مرتبة البشرية، واعتبروا بعضهم إلها، واعتبره بعض آخر منهم ابنا لله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا

والمعنى: يا أهل الكتاب لا تتجاوزوا الحد المشروع والمعقول فى شأن دينكم، ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الذى شعره الله - تعالى - وارتضته العقول السليمة

وقد ناداهم - سبحانه - بعنوان أهل الكتاب للتعريض بهم، حيث إنهم خالفوا كتبهم التى بين أيديهم

والخطاب هنا وإن كان يشمل أهل الكتاب جميعا من يهود ونصارى، إلا أن النصارى هم المقصودون هنا قصدا أولياً، بدليل سياق الآية الكريمة، فقد ذكرت حججاً تبطل ما زعمه النصارى فى شأن عيسى، ولذا قال ابن كثير ما ملخصه: قوله -

(١) النساء: ١٧١ -١٧٤.

تعالى:{**يا أهل الكتاب لاَ تَغْلُواْ**} ينهى - سبحانه - أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير فى النصارى، فإنهم تجاوزا الحد فى عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه بل قد غلوا فى أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ما قالوه سواء أكان حقاً أم باطلاً، أم ضلالاً أم رشاداً، ولهذا قال - تعالى:{**اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله**} وفى الصحيح عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: " لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولا: عبد الله ورسوله "

وقولـه:{**وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق**} من باب عطف الخاص على العام، للاهتمام بالنهى عن الافتراء الشنيع الذى افتروه على الله

أى: لا تصفوه - سبحانه - بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد، ولا تقولوا عليه - سبحانه - إلا القول الحق الثابت القائم على الدليل المقنع، والبرهان الواضح

وعدى - سبحانه - قولهم بحرف على، لتضمنه معنى الافتراء والكذب، فقد قالوا قولا وزعموا أنه من دينهم، مع أن الأديان السماوية بريئة مما زعموه وافتروه

ثم بين - سبحانه - القول الفصل فى شأن عيسى فقال:{**إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**}

أى: إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله أرسله - سبحانه - لهداية الناس إلى الحق،{**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ**} أى: أن عيسى مكون ومخلوق بكلمة من الله وكلمة (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة وهذه الكلمة ألقاها - سبحانه - إلى مريم، أى: أوصلها إليها بنفخ جبريل فيها فكان عيسى بإذن الله بشراً سويا

وقولـه:{**وَرُوحٌ مِّنْهُ**} أى: ونفخة منه، لأن عيسى حدث بسبب نفخة جبريل فى درع مريم فكان عيسى بإذن الله فنسب إلى أنه روح من الله، لأنه بأمره كان وسمى النفخ روحاً لأنه ريح تخرج من الروح قال - تعالى:{**والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وابنهآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**} وقيل المراد بقولـه:{**وَرُوحٌ مِّنْهُ**} أى: وذو روح من أمر الله، لأنه - سبحانه - خلقه كما يخلق سائر الأرواح

وقيل: الروح هنا بمعنى الرحمة كما فى قولـه - تعالى:{وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ} أى: برحمة منه وصدر - سبحانه الجملة الكريمة بأداة القصر (إنما) للتنبيه على أن عيسى - عليه السلام - ليس إلا رسولا أرسله الله لهداية الناس إلى الحق

وذكره - سبحانه بلقبه وباسمه وببنوته لمريم، للإشارة إلى أنه إنسان كسائر الناس، وبشر كسائر البشر، فهو مولود خرج من رحم انثى كما يخرج الأولاد من أمهاتهم وإذا كان لم يخرج من صلب أب، فيكفى أنه قد خرج من رحم أم، وكفى بذلك دليلا على بشريته

قال بعض العلماء ما ملخصه: وقولـه:{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ} أى: خلقه بكلمة منه وهى (كن) كما خلق آدم وكان عيسى بهذا كلمة الله لأنه خلقه بها، فقد خلق من غير بذر ببذر فى رحم أمه، فما كان تكوينه نماء لبذر وجد، وللأسباب التى تجرى بين الناس، بل كان السبب هو إرادة الله وحده وكلمته (كن) وبذلك سمى كلمة الله

وتعلق النصارى بأن كون عيسى كلمة الله دليل على ألوهيته - تعلق باطل - فما كانت الكلمة من الله إلها يعبد وإنما سمى بذلك، لأنه نشأ بكلمة لا بمنى من الرجل يمنى

وقولـه:{وَرُوحٌ مِّنْهُ} أى أنه - سبحانه - أنشأه بروح مرسل منه وهو جبريل الأمين وقد يقال: إنه نشأ بروح منه - سبحانه - أنه أفاض بروحه فى جسمه كما أفاض بها على كل إنسان كما قال - تعالى:{الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}[1] والرأى الأول أولى وعلى ذلك يكون معنى قولـه:{وَرُوحٌ مِّنْهُ} أى: أنه نشأ بنفخ الله الروح فيه من غير توسيط سلالة بشرية، ونطفة تتشكل إنسانا، وذلك بالملك الذى أرسله وهو جبريل

وسمى الله - تعالى - عيسى روحا باعتباره نشأ من الروح مباشرة، ولأنه غلبت عليه الروحانية

وبهذا يزول الوهم الذى سيطر على عقول من غالوا فى شأن عيسى فنحلوه ما ليس لـه، وما ليس من شأنه، إذ جعلوه إلها، أو ابن إله

(١) سورة السجدة: ٧ - ٩.

وقولـه:{المَسِيحَ} مبتدأ، و{عِيسَى} عطف بيان أو بدل منه وقولـه:{ابْنَ مَرْيَمَ} صفة لـه وقولـه:{رَسُولُ اللَّهِ} خبر للمبتدأ وقولـه:{وَكَلِمَتُهُ} معطوف على ما قبله وهو رسول الله أو قولـه:{أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ} جملة حالية من الضمير المجرور فى{كَلِمَتُهُ} بتقدير قد، والعامل فيها معنى الإضافة والتقدير وكلمته ملقيا إياها إلى مريم

وقولـه:{وَرُوحٌ مِّنْهُ} معطوف على{كَلِمَتُهُ} والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لروح ومن لابتدائه الغاية مجازا وليست بتبعيضية، أى أن الروح كائن من عند الله - تعالى - ونافخ بإذنه

وبعد أن بين - سبحانه - القول الحق فى شأن عيسى، دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به وبجميع رسله ونهاهم عن التمسك بالضلال والوهم فقال - تعالى:{فَآمِنُواْ بالله وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتهوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا الله إله وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ له وَلَدٌ له مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وكفى بالله وَكِيلاً}

والفاء فى قولـه:{فَآمِنُواْ} للإفصاح عن جواب شرط مقدر

أى: إذا كان ذلك هو الحق فى شأن عيسى، فآمنوا بالله إيمانا حقا بأن تفردوه بالألوهية والعبادة، وآمنوا برسله جميعا بدون تفريق بينهم، ولا تغالوا فى أحدهم منهم بأن تخرجوه عن طبيعته وعن وظيفته

وقولـه:{وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ} نهى لهم عن النطق بالكلام بالباطل

أى: ولا تقولوا الآلهة ثلاثة، أو المعبودات ثلاثة فثلاثة خبر لمبتدأ محذوف وعبر - سبحانه - بقولـه:{وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ} بدل قولـه - مثلا -: ولا تؤمنن بثلاثة؛ لأن أمر الثلاثة قول يقولونه، فإن سألتهم عن معناه قالوا تارة معناه: الآب والابن والروح القدس، أى أنهم ثلاثة متفرقون وتارة يقولون معناه: أن الأقانيم ثلاثة والذات واحدة إلى غير ذلك من الأقوال التى ما أنزل الله بها من سلطان

قال صاحب الكشاف: والذى يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة وأن المسيح ولد الله من مريم ألا ترى إلى قولـه - تعالى:{أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله} {وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله} والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون: فى المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم

هذا، وقد أفاض بعض العلماء فى الرد على مزاعم أهل الكتاب فى عقائدهم

وقولـه:**{انتهوا خَيْراً لَّكُمْ}** أمر لهم بسلوك الطريق الحق، والإقلاع عن الضلالات والأوهام

انتهوا عما أنتم فيه من ضلال يا معشر أهل الكتاب، واتركوا القول بالتثليث، يكن انتهاؤكم خيرا لكم، بعبادتكم لله وحده تكونون قد خرجتم من ظلمات الشرك إلى نور الوحدانية

وقولـه:**{إِنَّمَا الله إله وَاحِدٌ}** إثبات لوحدانية الله - تعالى - بأقوى طريق أى: إن المعبود بحق ليس إلا واحد، وهو الله - تعالى - ذو الجلال والإكرام، الخالق لهذا الكون، والمدبر لأمره

وقولـه:**{سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لـه وَلَدٌ}** تنزيه لـه - جل وعلا - عن صفات المخلوقين، وتوبيخ لمن وصفه بصفات لا تليق به

وسبحان منصوب بفعل مقدر من لفظه، أى: أسبحه تسبيحا وأنزهه تنزيها عن أن يكون لـه ولد، لأن الأبوة والبنوة من صفات المخلوقين، وهو - سبحانه - منزلـه عن صفات المخلوقين، قال - تعالى:**{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير}** [1]وقولـه:**{لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}** جملة مستأنفة مسبوقة لتعليل التنزيه أى أنه - سبحانه - مالك لجميع الموجودات علويها وسفليها، ولا يخرج من ملكه منها شىء

قال - تعالى:**{إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً}**[2] ومن كان شأنه كذلك تنزه عن أن يلد أو يولد أو يكون لـه شريك فى ملكه

وقولـه:**{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}** تذييل قصد به بيان سعة قدرته - سبحانه - وهيمنته على هذا الكون والوكيل: هو الحافظ والمدبر لأم غيره

أى: وكفى بالله وكيلا يكل إليه الخلق كلهم أمورهم، فهو الغنى عنهم وهم الفقراء إليه

ومفعول كفى محذوف للعموم أى: كفى كل أحد وكالة الله وحفظه وتدبيره، فتوكلوا

(١) الشورى: ١١.
(٢) مريم: ٩٣.

عليه وحده، ولا تتوكلوا على من تزعمونه ابنا لـه

ثم بين - سبحانه - أن المسيح عيسى - عليه السلام - عبد من عباد الله - تعالى -، وأنه لن يستنكف أبدا عن عبادة الله والإذعان لأمره فقال:**{لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون}**

وأصل**{يَسْتَنكِفَ}** - يقول القرطبى: نكف، فالياء والسين والتاء زوائد يقال: نكفت من الشئ واستنكف منه وأنكفته أى: نزهته عما يستنكف منه ومنه الحديث: " سُئل - رسول الله ﷺ عن**{سُبْحَانَ الله}** فقال: " إنكاف الله من كل سوء " (١)"

يعنى: تنزيهه وتقديسه عن الأنداد والأولاد

قال الزجاج: استنكف أى: أنف مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك عن خدك ومنه الحديث: " ما ينكف العرق عن جبينه " أى: ما ينقطع

وقيل: هو من النِّكْف وهو العيب يقال: ما عليه فى هذا الأمر من نِكْفٍ ولا وَكَف أى عيب أى لن يمتنع المسيح ولن يتنزه عن العبودية لله - تعالى - ولن ينقطع عنها ولن يعاب أن يكون عبداً لله تعالى

والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير ما سبقها من تنزيه لله - تعالى - عن أن يكون لـه ولد، وإثبات لوحدانيته - عز وجل - وإفراده بالعبادة

وقد روى المفسرون فى سبب نزولها " أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ : لم تعيب صاحبنا يا محمد؟ قال: **«ومن صاحبكم؟»** قالوا: عيسى، قال ﷺ : **«وأى شئ قلت؟»** قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله قال ﷺ : **«إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله»**

والمعنى: لن يأنف المسيح ولن يمتنع أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا ولن يمتنعوا عن ذلك، فإن خضوع المخلوقات لخالقها شرف ليس بعده شرف والله - تعالى - ما خلق الخلق إلا لعبادته وطاعته قال - تعالى:**{وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ}** وصدر - سبحانه - الجملة بحرف (لن) المفيدة للنفى المؤكد، لبيان أن عدم استنكاف المسيح والملائكة المقربين عن عبادة الله والخضع لـه أمر مستمر

(١) سيد طنطاوى/ ١٠٤.

وثابت ثبوتا لا شك فيه، لأنه - سبحانه - هو الذى خلق الخلق ورزقهم ومن حقه عليهم أن يعبدوه، ويذعنوا لأمره، بل ويشعروا باللذة والأنس والشرف لعبادتهم له - سبحانه - كما قال القاضي عياض:

ومما زادنى عجباً وتيها ::: وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى ::: وجعلك خير خلقك لى نبياً

هذا، وقد فهم بعض العلماء من هذه الآية أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وممن فهم هذا الفهم الإمام الزمخشرى فقد قال: وقوله:**{لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ}** أى: لن يأنف ولن يهذب بنفسه عزة، (من نكفت الدمع إذا نحيته عن خدك بإصبعك)**{وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ}** أى: ولا من هو أعلى منه قدرا، وأعظم منه خطرا وهم الملائكة الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن فى طبقتهم

ثم قال: فإن قلت: من أين دل قوله:**{وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ}** على أن المعنى: ولا من فوقه؟ قلت: من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك وذلك أن الكلام إنما سبق لرد مذهب النصارى وغلوهم فى رفع عيسى عن منزلة العبودية فوجب أن يقال لهم: لن يترفع عيسى عن العبودية ولا من هو أعلى منه درجة فكأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة، تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاها منزلة

وهذا الفهم الذى اتجه إليه الزمخشرى من أن الملائكة أفضل من الأنبياء، لم يوافقه عليه أكثر العلماء، فقد قال الإمام ابن كثير: وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال:**{وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ}** وليس له فى ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع

وليس له فى ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع والملائكة أقدر على ذلك من المسيح، فلهذا قال:**{وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ}** ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل وقيل: إنما ذكروا لأن بعض الناس اتخذهم آلهة مع الله كما اتخذ الضالون المسيح إلها أو ابنا لله فأخبر - سبحانه - أنهم عبيد من عباده، وخلق من خلقه

وقد حاول بعض العلماء أن يجعل الآية الكريمة بعيدة عن موطن النزاع

فقال: وعندى أن الترقى قائم، ولكن فى المعنى الذى سيق له الكلام وذلك أن النصارى غلوا غلواً كبيرا فى المسيح، لأنه ولد من غير أب، ولأنه جرت على يديه معجزات كثيرة، ولأنه روحانى المعانى، فيبين الله - تعالى - أنه مع كل هذا لن يستنكف أن يكون عبدا لله، ولا يستنكف من هو أعلى منه فى هذه المعانى أن يكون عبداً لله، وهم الملائكة الذين خلقوا من غير أب ولا أم وأجرى على أيديهم ما هو أشد وأعظم من معجزات، ومنهم من كان الروح الذى نفخ فى مريم، وهم أرواح طاهرة مطهرة فكان الترقى فى هذه المعانى، وهم فيها يفضلون عيسى وغيره وبذلك تكون الآية بعيدة عن الأفضلية المطلقة، فلا تدل على أفضلية الملائكة على الرسل فى المنزلة عند الله وتكون الآية بعيدة عن موطن الخلاف، والترقى دائما يكون فى المعانى التى سيق لها الكلام دون غيرها وليس المتأخر أعلى فى ذاته من المتقدم وأفضل، ولكنه أعلى فى الفعل الذى كان فيه كقول القائل: لا تضرب حرا ولا عبدا فالتدرج هنا فى النهى عن الضرب، لأنه إذا كان ضرب العبد غير جائز فأولى أن يكون ضرب الحر غير جائز

وذكر وصف المقربين، لأنهم إذا كانوا لا يستنكفون فأولى بذلك غيرهم

ثم هدد - سبحانه - كل من يمتنع عن عبادته والخضوع له فقال:**{وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}**

أى: ومن يأنف من عباده الله ويمتنع عنها، ويأبى الخضوع لطاعة الله ويستكبر عن كل ذلك، فسيجد يوم القيامة ما يستحقه من عقاب بسبب استنكافه واستكباره، فإن مرد العباد جميعا إليه - سبحانه - وسيجازى المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته

فالضمير فى قوله:**{فَسَيَحْشُرُهُمْ}** يعود إلى المستنكفين والمستكبرين وإلى غيرهم من المؤمنين المطيعين بدليل أن الحشر عام للمؤمنين والكافرين، وبدليل التفصيل المفرع على هذا الحشر فى قوله - تعالى - بعد ذلك:**{فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ}** أى: أن مرجع العباد جميعا إلى الله من استكبر عن عبادته وامتنع ومن لم يفعل ذلك بل آمن وأطاع فأما الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات، ولم يستنكفوا ولم يستكبروا، فسيعطيهم

- سبحانه - ثواب أعمالهم كاملة غير منقوصة، ويزيدهم على ذلك شأناً عظيماً من الرضا والفضل ومضاعفة الأجر

{وَأَمَّا الذين استنكفوا واستكبروا} عن عبادة الله وطاعته**{فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}** لا يحيط به الوصف**{وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله وَلِيّاً}** أى أحدا يدافع عنهم ويلى أمورهم، ولا يجدون كذلك " نصيرا " ينصرهم وينجيهم من عذاب الله وبأسه

وبعد هذا الوعد والوعيد والتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، وجه - سبحانه - نداء عاما إلى الناس أمرهم فيه باتباع طريق الحق فقال - تعالى:**{يَا أَيُّهَا الناس قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً}**

والمراد بالبرهان هنا: الدلائل والمعجزات الدالة على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه ويصح أن يكون المراد به النبى ﷺ وسماه - سبحانه - بذلك بسبب ما أعطاه من البراهين القاطعة التى شهدت بصدقه ﷺ، والمراد بالنور المبين: القرآن الكريم

قال الفخر الرازى: اعلم أنه - تعالى - لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى، وأجاب عن جميع شبهاتهم عمم الخطاب ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد ﷺ فقال:**{يَا أَيُّهَا الناس قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ}**

والبرهان: هو محمد ﷺ وإنما سماه برهانا؛ لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل والنور المبين هو القرآن الكريم وسماه نورا، لأنه سبب لوقوع نور الإيمان فى القلب(١)

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة / ١٠٥.

المطلب الثالث:

مقاصد القرآن والرسالة النبوية

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}(١)

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادي طريقها على طول الطريق وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله، ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها؛ وتسمع توجيهاته؛ وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام

ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها؛ وحين اتخذت القرآن مهجوراً - وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة، وتعاويذ ورقى وأدعية! - أصابها ما أصابها

ولقد كان الله - سبحانه - يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت في طريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية؛ وتركها هكذا ذيلاً في القافلة! حتى تثوب إلى ربها؛ وحتى تستمسك بعهدها، وحتى توفي بعقدها فيفي لها الله بوعده من التمكين في الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس وإلا بقيت هكذا ذيلاً للقافلة وعد الله لا يخلف الله وعده

ولقد كان توجيه الله لنبيه في ذلك الحين الذي نزلت فيه هذه الآية:

{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}

والعفو عن قبائحهم إحسان، والصفح عن خيانتهم إحسان

ولكن جاء الوقت الذي لم يعد فيه للعفو والصفح مكان فأمر الله نبيه ﷺ أن يجليهم عن المدينة ثم أن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها وقد كان

(١) المائدة: ١٥.

كذلك يقص الله - سبحانه - على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا: إنا نصارى، من أهل الكتاب ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك فنالهم جزاء هذا النقض للميثاق

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ} من اليهود والنصارى**{قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا}** محمد ﷺ**{يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب}** أي: يظهر لكم كثيراً من الأحكام والمسائل التي ذكرتها كتبكم وكتمتموها عن الناس، كإخفائكم صفة النبي ﷺ التي تجدونها في التوراة والإنجيل وكتمانكم ما جاء فيها من بشارات تبشر به وغير ذلك من الأحكام التي أخفاها علماؤكم عن العامة، وتولي الرسول ﷺ إعلانها إظهاراً للحق، ووضعا للأمور في نصابها

وقوله:**{وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ}** أي: يعرض ولا يظهر كثيراً مما كنتم تخفونه، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه، ولا فائدة تعود على الناس من وراء إظهاره، ففي السكوت عنه رحمة بكم، وصيانة لكم عن الافتضاح والمؤاخذة

يقال: عفا عن المذنب، أي: ستر عنه ذنبه فلم يعاقبه عليه

والمراد بالكتاب في قوله:**{يَا أَهْلَ الكِتَابِ}** جنس الكتب، فيشمل التوراة والإنجيل

وفي ندائهم بهذا الوصف حمل لهم على الدخول في الإسلام؛ فإن علمهم بما في كتبهم من بشارات بالرسول ﷺ ولم يدعوهم إلى الإيمان به فإذا لم يؤمنوا به مع علمهم بأنه رسول صادق في رسالته كانت مذمتهم أشد وأقبح، وكان عقابهم على كتمانهم الحق أعظم وأقسى وكان التعبير بقوله - تعالى:**{قَدْ جَآءَكُمْ}** للإشارة إلى أنه ﷺ قد وصل إليهم، ويعيش بينهم، فهم يرونه ويراهم ويخاطبهم ويخاطبونه، ليسمعوا منه ما يشهد بصدقه بدون حجاب أو وساطة

وفي التعبير بقوله - تعالى:**{رَسُولُنَا}** تشريف للرسول ﷺ حيث أضافه - سبحانه - إلى ذاته، وفيه كذلك إيذان بوجوب اتباعه لأنه رسول مبلغ عن الله - تعالى - ما يأمره بتبليغه بدون تغيير أو تبديل

والمراد بالكتاب في قوله:**{تُخْفُونَ مِنَ الكتاب}** التوراة والإنجيل فقد امتدت أيدي اليهود والنصارى إلى هذين الكتابين فغيروا وبدلوا فيهما على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم

وفي إظهار الرسول ﷺ للكثير مما كتموه، وعفوه عن الكثير مما أخفوه، معجزة لـه، لأنه لم يقرأ كتابا، ولم يجلس أمام معلم، فإخباره بأسرار ما في كتبهم إخبار عن أمور مغيبة، فيكون معجزة لـه تحملهم على الإيمان به فيما يدعوهم إليه

ثم مدح الله - تعالى - رسوله، وما جاء به من الخير والهدى فقال:**{قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ}**

والمراد بالنور هنا: محمد ﷺ فهو نور الأنوار - كما يقول الآلوسي

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم الذي أنزلـه - تعالى - على نبيه ﷺ والجملة الكريمة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجيء الرسول ﷺ ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه، بل لـه منافع أخرى لا تحصى

قال ابن جرير ما ملخصه، قولـه تعالى:**{قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ}** يقول - جل ثناؤه - لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: " قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور هو محمد ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام ومحق به الشرك قولـه:**{وَكِتَابٌ مُّبِينٌ}** يعني: كتابا فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله، وحلاله وحرامه وشرائع دينه وهو القرآن الذي أنزلـه على نبينا محمد ﷺ

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالنور وبالكتاب هنا: القرآن الكريم وقد اقتصر على هذا التفسير صاحب الكشاف فقال: قولـه:**{قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ}** يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإبانته ما كان خافياً عن الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإعجاز

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير أرجح، لأن العطف في الغالب يقتضي المغايرة في الذات إذ الرسول ﷺ قد جاء للناس برسالة هي نور في شخصه ﷺ كما جاءهم بالقرآن الكريم الدال على صدقه في رسالته

ثم بين - سبحانه - الغاية من رسالته ﷺ فقال - تعالى:**{يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام}**

والضمير في قولـه: (به) يعود إلى مجموع ما ذكر، أو إلى الكتاب المبين باعتباره أقرب مذكور و(سبل) جمع سبيل بمعنى طريق و(السلام) مصدر بمعنى السلامة

والمعنى: قد جاءكم - يا معشر أهل الكتاب - من الله نور وكتاب مبين - يهدي الله - تعالى - بذلك أو بالكتاب**{مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ}** أي: من علم - سبحانه - منه أنه يريد اتباع ما يرضي بأن يخلص له العبادة ويستجيب للحق الذي أرسل به أنبياءه فإنه متى كان كذلك، أوصله - سبحانه - إلى**{سُبُلَ السلام}** أي: إلى طرق السلامة والنجاة من كل خوف وشقاء، بأن يثبته في الدنيا على طريق الحق، ويكرمه في الآخرة بمثوبته وجنته هذه هي الثمرة الأولى من ثمار اتباع ما جاء من عندالله من نور وكتاب مبين أما الثمرة الثانية فقد بينها - سبحانه - بقوله:**{وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِهِ}**

والضمير المنصوب في قوله: (ويخرجهم) وهو (هم) يعود إلى (من) في قوله:**{مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ}** باعتبار المعنى

أي: ويخرج - سبحانه - هؤلاء الأخيار الذين علم منهم اتباع ما يرضيه يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الحق والإيمان (بإذنه) أي: بإرادته وعلمه

وقوله:**{وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** بيان للثمرة الثالثة من ثمار اتباع ما جاء من عند الله من حق وخير

أي: ويهدي - سبحانه - هؤلاء الذين علم منهم اتباع ما يرضيه إلى صراط مستقيم، وطريق قويم لا اعوجاج فيه ولا اضطراب، وهو طريق الإسلام الذي يوصل إلى الفوز الفلاح في الدنيا والآخرة

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد دعتا أهل الكتاب إلى اتباع الحق الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله، بأوضح أسلوب، وأكمل بيان، وبينتا لهم ما يترتب على اتباعه ﷺ من منافع جليلة، وفوائد عظيمة تجعلهم يسارعون إلى تصديقه إن كانوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه

* * * * *

المطلب الرابع:

التذكير بنعم الله على عيسى ابن مريم عليه السلام

{يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}[1]

يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم:**{مَاذَا أُجِبْتُمْ}** أي: ماذا أجابتكم به أممكم

فـ**{قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا}** وإنما العلم لك يا ربنا، فأنت أعلم منا**{إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ}** أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ} أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكرا لربك، حيث أنعم عليك نعما ما أنعم بها على غيرك

{إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ} أي: إذ قويتك بالروح والوحي، الذي طهرك وزكاك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله وقيل: إن المراد "بروح القدس" جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له، وتثبيته في المواطن المشقة

{تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا} المراد بالتكليم هنا، غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله

ولعيسى عليه السلام من ذلك، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، فقال:**{إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}**

{وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} فالكتاب يشمل الكتب السابقة وخصوصا

(١) المائدة: ١٠٩ - ١١١.

التوراة فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد موسى - بها ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه

والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي

{وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} أي طيرا مصورا لا روح فيه فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وتبرئ الأكمه الذي لا بصر له ولا عين**{وَالأبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي}** فهذه آيات بيِّنَات ومعجزات باهرات يعجز عنها الأطباء وغيرهم أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته**{وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ}** لما جاءهم الحق مؤيدا بالبينات الموجبة للإيمان به**{إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ}** وهموا بعيسى أن يقتلوه وسعوا في ذلك فكفَّ الله أيديهم عنه وحفظه منهم وعصمه، فهذه مِنَنٌ امتَنَّ الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ودعاه إلى شكرها والقيام بها فقام بها عليه السلام أتم القيام وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم**{وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا}**

أي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعاً وأعواناً فأوحيت إلى الحواريين أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا، وقالوا: آمنا بالله، واشهد بأننا مسلمون، فجمعوا بين الإسلام الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة، والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان[1]

* * * * *

(١) تفسير السعدى صفحة /١٢٦.

المطلب الخامس:

مائدة عيسى عليه السلام

{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}[1]

{إِذْ قَالَ الحواريون ياعيسى ابن مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء}

" المائدة ": الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد يميد، إذا تحرك فكأن المائدة تتحرك بما عليها وقال أبو عبيدة: سميت " مائدة " لأنها ميد بها صاحبها أي: أعطيها وتفضل عليه بها والخوان: ما يؤكل عليه الطعام

ويرى الأخفش وغيره أن المائدة هي لطعام نفسه، مأخوذة من " مادة " إذا أفضل

و " إذ " في قوله:**{إِذْ قَالَ الحواريون ياعيسى ابن مَرْيَمَ}** متعلق بمحذوف تقديره: أذكر وقت قول الحواريين يا عيسى ابن مريم

وقد ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه - كما حكى القرآن عنهم - لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا ألوهيته أو ولديته وقوله:**{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء}** فيه قراءتان سبعيتان:

الأولى:{يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ} بالياء - على أنه فعل فاعل وقوله:**{أَن يُنَزِّلَ}** المفعول والاستفهام على هذه القراءة محمول على المجاز، لأن الحواريين كانوا مؤمنين، ولا يعقل من مؤمن أن يشك في قدرة الله

ومن تخرجاتهم في معنى هذه القراءة أن قوله:**{يَسْتَطِيعُ}** بمعنى " يطيع " والسين زائدة كاستجاب وأجاب

أي: أن معنى الجملة الكريمة: هل يطيعك - ربك يا عيسى إن سألته أن ينزل علينا

(١) المائده: ١١٢ - ١١٥.

مائدة من السماء؟

وسنفصل القول في تخريج هذه القراءة، وفي اختلاف المفسرين في إيمان الحواريين بعد انتهائنا من تفسير هذه الآيات الكريمة

أما القراءة الثانية: فهي " هل تستطيع ربك " بالتاء وبفتح الباء في " ربك " والمعنى: هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء

قال القرطبي: قراءة الكسائي وعلى وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد " هل تستطيع " بالتاء " ربك " بالنصب وقرأ الباقون بالياء " هل تستطيع " " ربك " بالرفع

والمعنى على قراءة الكسائي - بالتاء: هل تستطيع أن تسأل ربك

قالت عائشة: كان القوم أعلم بالله - تعالى - من أن يقولوا: " هل يستطيع ربك " وقال معاذ: أقرأنا النبي ﷺ: هل تستطيع ربك قال معاذ: وسمعت النبي ﷺ مراراً يقرأ بالتاء "

وقوله - سبحانه: **{قَالَ اتقوا الله إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ}** حكاية لما رد به عيسى على الحواريين فيما طلبوه من إنزال المائدة

أي قال لهم عيسى: اتقوا الله وقفوا عند حدوده، واملؤوا قلوبكم هيبة وخشية منه، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان، فإن المؤمن الصادق في إيمانه يبتعد، عن أمثال هذه المطالب التي قد تؤدي إلى فتنته

ثم حكى القرآن ما رد به الحواريون على عيسى فقال: **{قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين}**

أي: قال الحواريون لعيسى إننا نريد نزول هذه المائدة علينا من السماء لأسباب:

أولها: إننا نرغب في الأكل منها لننال البركة، ولأننا في حاجة إلى الطعام بعد أن ضيق علينا أعداؤك وأعداؤنا الذين لم يؤمنوا برسالتك

وثانيها: أننا نرغب في نزولها لكي تزداد قلوبنا اطمئنانا إلى أنك صادق فيما تبلغه عن ربك، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي، مما يؤدي إلى رسوخ الإيمان، وقوة اليقين

وثالثها: أننا نرغب في نزولها لكي نعلم أن قد صدقتنا في دعوة النبوة، وفي جميع ما

تخبرنا به من مأمورات ومنهيات، لأن نزولها من السماء يجعلها تخالف ما جئتنا به من معجزات أرضية، وفي ذلك ما فيه من الدلالة على صدقك في نبوتك

ورابع هذه الأسباب: أننا نرغب في نزولها لكي نكون من الشاهدين على هذه المعجزة عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، ليزداد الذين آمنوا منهم إيماناً، ويؤمن الذي عنده استعداداً للإيمان

وبذلك نرى أن الحواريين قد بينوا لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - أنهم لا يريدون نزول المائدة من السماء لأنهم يشكون في قدرة الله، أو في نبوة عيسى أو أن مقصدهم من هذا الطلب التعنت

وإنما هم يريدون نزولها لتلك الأسباب السابقة التي يبغون من ورائها الأكل وزيادة الإيمان واليقين والشهادة أمام الذين لم يحضروا نزولها بكمال قدرة الله وصدق عيسى في نبوته

ثم حكى - سبحانه - ما تضرع به عيسى بعد أن سمع من الحواريين ما قالوه في سبب طلبهم لنزول المائدة من السماء فقال - تعالى:**{قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ اللهم رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وارزقنا وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين}**

وقوله:**{اللَّهُمَّ}** أي: يا الله فالميم المشددة عوض عن حرف النداء، ولذلك لا يجتمعان وهذا التعويض خاص بنداء الله ذي الجلالة والإكرام

وقوله:**{عِيداً}** أي سرورا وفرحا لنا، لأن كلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور

قال القرطبي: والعيد واحد الأعياد أصله من عاد يعود أي: رجع وقيل ليوم الفطر والأضحى عيد، لأنهما يعودان كل سنة وقال الخليل: " العيد كل يوم يجمع الناس فيه كأنهم عادوا إليه، وقال ابن الانباري: سمى عيدا للعود إلى المرح والفرح فهو يوم سرور"

والمعنى: قال عيسى بضراعة وخشوع - بعد أن سمع من الحواريين حجتهم:**{اللَّهُمَّ رَبَّنَا}** أي: يا الله يا ربنا ومالك أمرنا، ومجيب سؤالنا أتوسل إليك أن تنزل علينا**{مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ}** أي: أطعمة كائنة من السماء هذه الأطعمة**{تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا}** أي: يكون يوم نزولها عيدا نعظمه ونكثر من التقرب إليك فيه نحن الذين شاهدناها، ويكون - أيضاً

- يوم نزولها عيداً وسروراً وبهجة لمن سيأتي بعدنا ممن لم يشاهدنا

قال ابن كثير قال السدي: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا وقال سفيان الثوري: يعني يوما نصلي فيه وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم وقال سلمان الفارسي: تكون عظة لنا ولمن بعدنا

وقوله:**{وَآيَةً مِّنْكَ}** معطوف على قوله:**{عيداً}**

أي: تكون هذه المائدة النازلة من السماء عيداً لأولنا وآخرنا، وتكون أيضاً - دليلا - وعلامة منك - سبحانك - على صحة نبوتي ورسالتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك، ويزداد يقينهم بكمال قدرتك

وقوله:**{وارزقنا وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين}** تذييل بمثابة التعليل لما قبله أي: أنزلها علينا يا ربنا وازرقنا من عندك رزقا هنيئا رغداً، فإنك أنت خير الرازقين، وخير المعطين، وكل عطاء من سواك لا يغني ولا يشبع

وقد جمع عيسى في دعائه بين لفظي " اللهم ربنا " إظهاراً لنهاية التضرع وشدة الخضوع، حتى يكون تضرعه أهلا للقبول والإجابة

وعبر عن مجيء المائدة بالإنزال من السماء: للإشارة إلى أنها هبة رفيعة، ونعمة شريفة، آتية من مكان عال مرتفع في الحسن والمعنى، فيجب أن تقابل بالشكر لواهبها - عز وجل - وبتمام الخضوع والإخلاص له

وقوله:**{تَكُونُ لَنَا عِيداً}** صفة ثانية لمائدة، وقوله:**{لنا}** خبر كان وقوله:**{عيداً}** حال من الضمير في الظرف

قال الفخر الرازي: تأمل في هذا الترتيب، فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً، فقدموا ذكر الأكل فقالوا:**{نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا}** وأخروا الأغراض الدينية الروحانية

فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال:**{وارزقنا}** وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحية، وبعضها جسمانية

ثم إن عيسى لشدة صفاء دينه لما ذكر الرزق انتقل إلى الرازق بقوله:**{وارزقنا}** لم

يقف عليه: بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال:{وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين} فقولـه:{ربنا} ابتداء منه بذكر الحق وقولـه:{أَنزِلْ عَلَيْنَا} انتقال من الذات إلى الصفات

وقولـه:{تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا} إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة، بل من حيث إنها صادرة من المنعم

وقولـه:{وَآيَةً مِّنْكَ} إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال

وقولـه:{وارزقنا} إشارة إلى حصة النفس

ثم قال الإمام الرازي: فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلٌ إلى الأدون فالأدون

ثم قال:{وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين} وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق، ومن غير الله إلى الله، وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية إلى الكمالات الإلهية ونزولها

ثم ختم - سبحانه - حديثه عن هذه المائدة وما جرى بشأنها بين عيسى والحوراريين من أقوال فقال - تعالى:{قَالَ الله إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين}

وقولـه:{مُنَزِّلُهَا} ورد فيه قراءاتان متواتران

إحداهما: منزلها - بتشديد الزاي - من التنزيل وهي تفيد التكثير أو التدريج كما تنبئ عن ذلك صيغة التفعيل وبهذه القراءة قرأ ابن عامر وعاصم ونافع

وقرأ الباقون:{مُنَزِّلُهَا} بكسر الزاي - من الإنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة

والمعنى: قال الله - تعالى - إني منزل عليكم المائدة من السماء إجابة لدعاء رسولي عيسى - عليه السلام:{فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ} أي فمن يكفر بعد نزولها منكم أيها الطالبون لها{فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين} أي: فإن الله - تعالى - يعذب هذا الكافر بآياته عذاباً لا يعذب مثله أحداً من عالمي زمانه أو من العالمين جميعاً

وقد أكد - سبحانه - عذابه للكافر بآيات الله بعد ظهورها وقيام الأدلة على صحتها بمؤكدات منها: حرف إن في قولـه:{فإني أُعَذِّبُهُ} ومنها: المصدر في قولـه:{فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً} إذ المفعول المطلق هنا لتأكيد وقوع الفعل وهو العذاب

ومنها: وصف هذا العذاب بأنه لا يعذب مثله لأحد من العالمين

وهذه المؤكدات لوقوع العذاب على الكافر بآيات الله بعد وضوحها من أسبابه: أن الكفر بعد إجابة ما طلبوه، وبعد رؤيته ومشاهدته؛ وبعد قيام الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته، وبعد ظهور البراهين الدالة على صدق رسوله

أقول: الكفر بعد كل ذلك يكون سببه الجحود والعناد والحسد، والجاحد والمعاند والحاسد يستحقون أشد العذاب، وأعظم العقاب

هذا، وهنا مسألتان تتعلقان بهذه الآيات الكريم'، نرى من الخير أن نتحدث عنهما بشيء من التفصيل

المسألة الأولى: آراء العلماء في إيمان الحواريين وعدم إيمانهم «

المسألة الثانية: آراء العلماء في نزول المائدة وعدم نزولها

وللإجابة على المسألة الأولى نقول: لعل منشأ الخلاف في إيمان الحواريين وعدم إيمانهم مرجعه إلى قولهم لعيسى - كما حكى القرآن عنهم:**{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء}؟** فإن هذا القول يسشعر بشكهم في قدرة الله على إنزال هذه المائدة

وقد ذهب فريق من العلماء - وعلى رأسهم الزمخشري - إلى عدم إيمانهم، وجعلوا الظرف في قوله:**{إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ}** متعلقا بقوله قبل ذلك:**{قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}**

أي: أنهم قالوا لعيسى آمنا واشهد بأننا مسلمون، في الوقت الذي قالوا له فيه**{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ}** فكأنهم ادعوا الإيمان والاسلام ادعاء بدون إيقان وإذعان، وإلا فلو كانوا صادقين في دعواهم لما قالوا لعيسى بأسلوب الاستفهام:**{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ}؟**

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قالوا:**{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ}** بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاءهم لهما، ثم اتبعه بقوله:**{وَإِذْ قَالُواْ}** فإذن دعواهم كانت باطلة، وأنهم كانوا شاكين، وقوله:**{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ}** كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم وكذلك قول عيسى لهم معناه: اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته، ولا تقترحوا عليه ولا تحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها**{إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ}** أي: إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة

وذهب جمهور العلماء إلى أن الحواريين عندما قالوا لعيسى:{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ} كانوا مؤمنين واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

١) أن الظرف في قوله:{إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ} ليس متعلقا بقوله:{قَالُوا آمَنَّا} وإنما هو منصوب بفعل مضمر تقديره اذكر، وهذا ما رجحه العلامة أبو السعود في تفسيره فقد قال: قوله:{إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ} كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه - عليه السلام - وبين قومه منقطع عما قبله، كما ينبئ عنه الإظهار في موضع الاضمار وإذ منصوب بمضمر وقيل: هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الإيمان والإخلاص لم يكن عن تحقيق وإيقان ولا يساعده النظم الكريم

٢) أن قول الحواريين لعيسى:{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ} لا يسحب عنهم الإيمان، وقد خرج العلماء قولهم هذا بتخريجات منها:

أ - أن قولهم لم يكن من باب الشك في قدرة الله، وإنما هو من باب زيادة الاطمئنان عن طريق ضم علم المشاهدة إلى العلم النظري بدليل أنهم قالوا بعد ذلك{نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا}

وشبيه بهذا قول إبراهيم:{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} قال القرطبي ما ملخصه: " الحواريون خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم، وقد كانوا عالمين باستطاعة الله لذلك ولغيره علم دلالة وخبرونظر فأرادوا علم معاينة كذلك، كما قال إبراهيم{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى} وقد كان إبراهم علم ذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة، لا يدخله شيء من ذلك، ولذلك قال الحواريون:{وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا} كما قال إبراهيم:{ولَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}

ب - أن السؤال إنما هو الفعل لا عن القدرة عليه، وقد بسط الآلوسي هذا المعنى فقال: إن معنى:{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ} هل يفعل ربك كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم معي مبالغة في التقاضي

والتعبير عن الفعل بالاستطاعة، من باب التعبير عن المسبب بالسبب، إذ هي - أي الاستطاعة - من أسباب الإيجاد

ج - أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة - كما سبق أن أشرنا - ويشهد لذلك قول الفخر الرازي: قال السدي؛ قوله:**{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ}** أي: هل يطيعك ربك إن سألته وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة

والذي نراه أن رأى الجمهور أرجح للأدلة التي ذكرناها، ولأن الله - تعالى - قد ذكر قبل هذه الآية أنه قد امتن عليهم بإلهامهم الإيمان فقال:

{وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي} ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين لكشف الله عن حقيقتهم، فقد جرت سنته - سبحانه - مع أنبيائه أن يظهر لهم نفاق المنافقين حتى يحذرهم

ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين، لما أمر الله أتباع النبي ﷺ بالتأسي بهم في إخلاصهم ورسوخ يقينهم قال - تعالى:**{يأيها الذين آمَنُواْ كونوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصاري إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله}** وقال - تعالى:**{فَلَمَّآ أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكفر قَالَ مَنْ أنصاري إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنْصَارُ الله آمَنَّا بالله واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** فهاتان الآيتان صريحتان في مدح الحواريين وفي أنهم قوم التفوا حول عيسى - عليه السلام - وناصروه مناصرة صادقة، وآمنوا به إيمانا سليما من الشك والتردد

وأما المسألة الثانية: وهي آراء العلماء في نزول المائدة: فالجمهور على أنها نزلت

وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه: والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال: إن الله أنزل المائدة لأن الله لا يخلف وعده، ولا يقع في خبره الخلف وقد قال - تعالى - مخبرا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى حين سأله ما سأله من ذلك:**{إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ}** وغير جائز أن يقول الله إني منزلها عليكم ثم لا ينزلها، لأن ذلك منه - تعالى - خبر، ولا يكون منه خلاف ما يخبر

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير فقال: وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم

ومن الآثار ما خرجه الترمذي عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ : **«أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحما، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد: فخانوا وادخروا ورفعوا لغد**

فمسخهم قردة وخنازير» [1]

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس، أن عيسى ابن مريم قالوا لـه ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء قال: فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم

والذي يراجع بعض كتب التفسير يرى كلاما كثيراً عما كان على المائدة من أصناف الطعام، وعن كيفية نزولها ومكانه، وعن كيفية استقبالها وكشف غطائها، والأكل منها والباقي عليها بعد الأكل وهذا الكلام الكثير رأينا من الخير أن نضرب عنه صفحاً، لضعف أسانيده، ولأنه لا يخلو عن غرابة ونكارة - كما قال ابن كثير - فقد ذكر - رحمه الله - أثرا طويلا في هذا المعنى ثم قال في نهايته: هذا أثر غريب جدا قطعه ابن أبى حاتم في مواضع من هذه القصة، وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم

ويعجبني في هذا المقام قول ابن جرير: وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة، فأن يقال: كان عليها مأكول وجائز أن يكون هذا المأكول سمكا وخبزاً، وجائز أن يكون من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل

ويرى الحسن ومجاهد أن المائدة لم تنزل، فقد روى ابن جرير - بسنده - عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم:**{فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ}** قالوا: لا حاجة لنا فيها فلم تنزل

وروى منصور بن زاذان عن الحسن أيضاً أنه قال في المائدة: إنها لم تنزل

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء

أي: مثل ضربه الله للناس نهيا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه

قال الحافظ ابن كثير: وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى ولس في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد

(١) خرجه الترمذي عن عمار بن ياسر: ٢٩٨٧.

وقد علق بعض العلماء على كلام ابن كثير هذا فقال: ولنا أن نقول: إن هذا الاستدلال إن كان يعني عدم نزولها فقط، فقد يكون له شيء من الوجاهة وإن كان يعني أنها لا تنزل ولم يسأل، فهو محل نظير كبير، لأن السؤال مالم ينته بإجابة كونية فعلية تبرز بها المائدة للناس ويرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم فلا يعد بذلك مما تتوافر الدواعي على نقله، لا سيما وعيسى في بيئة محصورة: جماعة سألوا وأجيبوا، وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا فعدم تواتر سؤالها في كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لا يستغرب كما يستغرب الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورآها الناس فعلا وأكلوا منها وتذوقوا طعامها، ولم يذكر عن ذلك شيء

وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداءً وانفرد بها عن سائر الكتب، ولا يلزم أن يكون كل ما قصه الله - تعالى - في القرآن قد قصه في غيره من الكتب المتقدمة، ولا أن أصحاب الأناجيل علموا بكل شيء حتى بمثل هذه المحاورة الخاصة التي لم تنته بحادث كوني حتى يكون عدم ذكرهم إياها في أناجيلهم - التي وضعوها - دليلا على عدم سؤالها فقصة السؤال إذن لم ترد فيما عند النصارى ولكنها وردت فيما عند المسلمين

ومن الجائز أن تكون مما ورد في الأناجيل، وأن تكون مما أخفاه أهل الكتاب أو ضاع منهم علمه بسبب ما والقرآن كما وصف بنفسه مهيمن على كتبهم التي وصفها بأنهم حرفوها وأنهم كانوا يخفون كثيراً منها، وأنه يبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون

هذا ومما سبق يتبين لنا: أن العلماء متفقون على أن الحواريين قد سألوا عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وأن عيسى قد دعا ربه فعلا أن ينزلها، كما جاء في الآية الكريمة

ومحل الخلاف بينهم أنزلت أم لا؟ فالجمهور يرون أنها نزلت لأن الله وعد بذلك في قوله:**{إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ}** والحسن ومجاهد يريان أنها لم تنزل، لأن الوعد بنزولها مقيد بما رتب علي وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها، وأن القوم بعد أن سمعوا هذا الشرط قالوا: لا حاجة لنا فيها فلم تنزل، ويبدو لنا أن رأى الجمهور أقرب إلى الصواب، لأن ظاهر الآيات يؤيده، وكذلك الآثار التي وردت في ذلك

ثم حكت السورة الكريمة ما سيقوله الله لعيسى يوم القيامة، وما سيرد به عيسى على

خالقه - عز وجل - حتى تزداد حسرة الذين وصفوا المسيح وأمه بما هما بريئان منه فقال - تعالى:{وَإِذْ قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ}(١)

* * * * *

المطلب السادس:
الألوهية والربوبية لله تعالي

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٢)

إن الله - سبحانه - ليعلم ماذا قال عيسى للناس ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب: الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول؛ ولكن في صورته هذه وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم

إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها أن يدعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد فكيف برسول من أولي العزم؟ كيف بعيسى ابن مريم؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجواباً عن ادعاء الألوهية، وهو العبد الصالح المستقيم؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب يبدأ بالتسبيح والتنزيه:

{قَالَ سُبْحَانَكَ}

ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً:

{مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}

(١) تفسير سيد طنطاوى صفحة/ ١٢٦.
(٢) المائدة: ١١٦ - ١٢٠.

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه:{إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ}

وعندئذ فقط، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته:{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}

ثم يخلي يده منهم بعد وفاته وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله - سبحانه - قد توفى عيسى ابن مريم ثم رفعه إليه وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله وليس هنالك - فيما أرى - أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً وكذلك صورة حياة عيسى - عليه السلام - وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي:

{وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب:{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}

فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب!

وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة؛ التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواجف، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟

أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟

إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة فلعلهم يتذاوبون خزياً وندماً فلندعهم حيث تركهم السياق! لنشهد ختام المشهد العجيب:

{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ} هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم إنه

التعقيب المناسب على كذب الكاذبين؛ الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم في أعظم القضايا كافة قضية الألوهية والعبودية، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم إنها كلمة رب العالمين، في ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين وهي الكلمة الأخيرة في المشهد وهي الكلمة الحاسمة في القضية ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين:

{لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}

{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}

{وَرَضُوا عَنْهُ}

درجات بعد درجات الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم:

{ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ}

ولقد شهدنا المشهد - من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة - وسمعنا الكلمة الأخيرة شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعداً يوعد، ولا مستقبلاً ينتظر؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرؤها العيون إنما حركت به المشاعر، وجسمته واقعاً اللحظة تسمعه الآذان وتراه العيون

على أنه إن كان بالقياس إلينا - نحن البشر المحجوبين - مستقبلاً ننتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق، واقع حاضر فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانين

وفي نهاية هذا الدرس؛ وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - فرية ألوهيته؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ، وفوض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض

في مواجهة هذه الفرية، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، في ذلك المشهد العظيم يجيء الإيقاع الأخير في السورة؛ يعلن تفرد الله - سبحانه

- بملك السماوات والأرض وما فيهن؛ وقدرته - سبحانه - على كل شيء بلا حدود:{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل؛ ويفوضون إليه الأمر كله؛ ويفوض فيه عيسى ابن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير

وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن "الدين" وتعرضه ممثلاً في اتباع شريعة الله وحده، والتلقي منه وحده، والحكم بما أنزله دون سواه إنه المالك الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، والمالك هو الذي يحكم:{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ} إنها قضية واحدة قضية الألوهية قضية التوحيد وقضية الحكم بما أنزل الله لتتوحد الألوهية، ويتحقق التوحيد(١)

* * * * *

المطلب السابع:

خصائص القرآن والتوراة

{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} (٢)

يبدأ هذا المقطع الأخير في هذا الشطر من السورة بالحديث عن كتاب موسى وذلك تكملة للحديث السابق عن صراط الله المستقيم:{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} للإيحاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وشرائعهم وأقرب شريعة كانت هي شريعة موسى عليه السلام،

(١) تفسير الظلال /١٢٧.
(٢) الأنعام: ١٥٤ - ١٥٧.

وقد أعطاه الله كتابا فصل فيه كل شيء، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله في الآخرة:**{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}**

ويستمر فيذكر الكتاب الجديد المبارك، الملتحم بالكتاب الذي أنزل على موسى، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها رجاء أن ينال الناس - حين يتبعونها - رحمة الله في الدنيا والآخرة:**{وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}**

ولقد نزل هذا الكتاب قطعاً لحجة العرب، كي لا يقولوا: إنه لم يتنزل علينا كتاب كالذي تنزل على اليهود والنصارى؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكنا أهدى منهم، فها هو ذا كتاب يتنزل عليهم، ويقطع هذه الحجة عليهم، فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم:**{أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ}**

قال الآلوسى: قولـه:**{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ}** إلخ كلام مستأنف مسوق من جهته - تعالى - تقريرا للوصية وتحقيقا لها، وتمهيداً لما سبقه من ذكر إنزال القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله:**{ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ}** بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريراً لمضمونه، فعلنا ذلك**{ثُمَّ آتَيْنَا}** وقيل عطف على**{ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ}** وعند الزجاج أنه عطف على معنى التلاوة، كأنه قيل:**{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}** (ثم أتل عليهم ما آتاه الله موسى)

وكلمة: ثم لا تفيد الترتيب الزمنة هنا، وإنما تفيد عطف معنى على معنى، فكأنه - سبحانه - يقول: لقد بينت لكم فى هذه الوصايا ما فيه صلاحكم ثم أخبركم بأنا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة ليكون هدى ونوراً

وقولـه:**{تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ}** قرأ الجمهور أحسن بفتح النون على أنه فعل ماض

وفاعله ضمير الذى، أى: آتينا موسى الكتاب تماماً للكرامة والنعمة على من أحسن القيام به كائناً من كان فالذى لجنس المحسنين

وتدل عليه قراءة عبد الله " تماماً على الذين أحسنوا " وقراءة الحسن " على المحسنين"

ويجوز أن يكون فاعل أحسن ضمير موسى - عليه السلام - ومفعوله محذوف أى: آتينا موسى الكتاب تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل أمر وهو موسى - عليه السلام - و" تماماً " مفعول لأجله أى: آتيناه لأجل تمام نعمتنا، أو حال من الكتاب، أى: حال كونه أى الكتاب تاماً أو مصدر لقوله: " آتينا " من معناه، لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة كأنه قيل: أتممنا النعمة إتماماً أو مصدر لقوله: " آتينا " من معناه، لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة كأنه قيل: أتممنا النعمة إتماماً فهو " كنباتاً " فى قوله:**{والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً}** أى إنباتاً

وقرأ يحيى بن يعمر " على الذى أحسن " بضم النون على أنه خبر لمبتدأ محذوف، و"الذى" وصف للدين أى: تماماً على الدين الذى هو أحسن دين وأرضاه

قال ابن جرير: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها فى العربية وجه صحيح، لخلافها ما عليه الحجة مجمعة من قراء الأمصار "

وقوله:**{وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ}** معطوف على ما قبله، أى: وبيانا مفصلا لكل ما يحتاج إليه قومه فى أمور دينهم ودنياهم

وقوله:**{وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}** أى: هذا الكتاب هداية لهم إلى طريق الحق، ورحمة لمن عمل به لعلهم - أى قوم موسى وسائر أهل الكتاب - يصدقون بيوم الجزاء، ويقدمون العمل الصالح الذى ينفعهم فى هذا اليوم الشديد

ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن فقال:**{وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ}** أى: وهذا القرآن الذى قرأ عليكم أوامره ونواهيه رسولنا ﷺ كتاب عظيم الشأن أنزلناه بواسطة الروح الأمين، وهو جامع لكل أسباب الهداية الدائمة، والسعادة الثابتة

{فَاتَّبِعُوهُ} أى: اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى والأحكام

{وَاتَّقُوا} مخالفته واتباع غيره

{اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} أى: لترحموا بواسطة اتباعه والعمل بما فيه

ثم قطع - سبحانه - عذر كل من يعرض عن هذا الكتاب فقال:**{أَن تقولوا إِنَّمَآ أُنزِلَ الكتاب على طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ}**

أى: أنزلنا هذا الكتاب لهدايتكم كراهة أن تقولوا يوم القيامة، أو لئلا تقولوا لو لم ننزله: إنما أنزل الكتاب الناطق بالحجة على جماعتين كائنتين من قبلنا وهما اليهود والنصارى، وإن كنا عن تلاوة كتابهم لغافلين لا علم لنا بشىء منها لأنها ليست بلغتنا

فقوله:**{أَن تَقُولُوا}** مفعول لأجله والعامل فيه أنزلناه مقدراً مدلولا عليه بنفس أنزلناه الملفوظ به فى الآية السابقة أى: أنزلناه كراهية أن تقولوا

وقيل: إنه مفعول به والعامل فيه قوله فى الآية السابقة - أيضاً:**{وَاتَّقَوْا}** أى: واتقوا قولكم كيت وكيت وقوله:**{لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** معترض جار مجرى التعليل

والمراد بكتاب جنسه المنحصر فى التوراة والإنجيل والزبور

وتخصيص الإنزال بكتابيهما لأنهما اللذان اشتهرا من بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام

والخطاب لكل من أرسل إليهم الرسول ﷺ

ثم ساق - سبحانه - آية أخرى لقطع أعذارهم فقال:**{أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّآ أهدى مِنْهُمْ}**

أى: وأنزلنا الكتاب - أيضاً - خشية أن تقولوا معتذرين يوم القيامة لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الذين من قبلنا، لكنا أهدى منهم إلى الحق وأسرع منهم استجابة لله ولرسوله لمزيد ذكائنا، وتوقد أذهاننا، وتفتح قلوبنا

وقوله:**{فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ}** جواب قاطع لأعذارهم وتعللاتهم أى: فقد جاءكم من ربكم عن طريق نبيكم محمد ﷺ هذا الكتاب الواضح المبين، والذى هو هداية لكم إلى طريق الحق، ورحمة لمن يعمل بما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات

وقوله:**{فَقَدْ جَآءَكُمْ}** متعلق بمحذوف تنبئ عنه الفاء الفصحية إما معلل به أى: لا تعتذروا فقد جاءكم وإما شرط له أى: إن صدقتم فيما كنتم تعدون به فقد حصل ما فرضتم وجاءكم بينه من ربكم

والاستفهام فى قولـه:**{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ الله وَصَدَفَ عَنْهَا}** للإنكار والنفى أى: لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن جاءته بيانتها الكاملة، وهداياتها الشاملة

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن مجىء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أى: وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم؟ ومعنى: وصدف عنها أى: أعرض عنها غير متفكر فيها، أو صرف الناس عنها وصدهم عن سبيلها فجمع بين الضلال والإضلال

ثم ختم - سبحانه - الآية بتهديد أولئك المعرضين عن آياته بقولـه:**{سَنَجْزِي الذين يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سواء العذاب بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ}** أى: سنجزيهم أسوأ العذاب وأشده بسبب تكذيبهم لآياتنا وإعراضهم عنها

فالآيتان الكريمتان تقطعان كل عذر قد يتعلل به يوم القيامة المكذبون لرسول الله ﷺ وللقرآن الكريم، وتتوعدهم بأشد ألوان العذاب(١)

* * * * *

المطلب الثامن:

اتباع ملة إبراهيم عليه السلام

{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لـه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}(٢)

استئناف ابتدائي للانتقال من مجادلة المشركين، وما تخللها، إلى فذلكة ما أُمر به الرّسول ﷺ في هذا الشّأن، غَلقاً لباب المجادلة مع المعرضين، وإعلاناً بأنّه قد تقلّد لنفسه ما كان يجادلهم فيه ليتقلّدوه وأنّه ثابت على ما جاءهم به، وأنّ إعراضهم لا يزلزله عن الحقّ

(١) تفسير الألوسى /١٤٩.
(٢) الأنعام: ١٦١ - ١٦٥.

وفيه إيذان بانتهاء السّورة لأنّ الواعظ والمناظر إذا أشبع الكلام في غرضه، ثمّ أخذ يبين ما رَضِيه لِنفسه وما قَرّ عليه قَراره، علم السّامع أنَّه قد أخذ يطوي سجلّ المحاجّة، ولذلك غيّر الأسلوب فأمر الرّسول ﷺ بأن يقول أشياء يعلن بها أصول دينه، وتكرّر الأمر بالقول ثلاث مرّات تنويهاً بالمقول

وقوله:**{إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي}** متصل بقوله:**{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ}**(١) الذي بيّنه بقوله:**{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ}**(٢) فزاده بياناً بقوله هذا:**{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**، ليبيّن أنّ هذا الدّين إنّما جاء به الرّسول ﷺ بهدي من الله، وأنَّه جعله ديناً قيّماً على قواعد ملّة إبراهيم عليه السّلام، إلاّ أنَّه زائد عليه بما تضمّنه من نعمة الله عليه إذ هداه إلى ذلك الصّراط الذي هو سبيل النّجاة وافتُتح الخبر بحرف التّأكيد لأنّ الخطاب للمشركين المكذّبين

وتعريف المسند إليه بالإضافة للاعتزاز بمربوبية الرّسول ﷺ للّه تعالى، وتعريضاً بالمشركين الذين أضلّهم أربابهم، ولو وحّدوا الربّ الحقيق بالعبادة لهداهم

وقوله:**{هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** تمثيليّة: شبّهت هيئة الإرشاد إلى الحقّ المبلّغ إلى النّجاة بهيئة من يدلّ السّائر على الطّريق المبلّغة للمقصود

والمناسبة بين الهداية وبين الصّراط تامّة، لأنّ حقيقة الهداية التّعريف بالطّريق، يقال: هو هاد خِرّيت، وحقيقة الصّراط الطّريق الواسعة وقد صحّ أن تستعار الهداية للإرشاد والتّعليم، والصّراطُ للدين القويم، فكان تشبيهاً مركّباً قابلاً للتفكيك وهو أكمل أحوال التّمثيليّة

ووُصف الصّراط بالمستقيم، أي الذي لا خطأ فيه ولا فساد، وقد تقدّم عند قوله تعالى:**{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ}**(٣)، والمقصود: إتمام هيئة التّشبيه بأنَّه دين لا يتطرّق متّبعه شكّ في نفعه كما لا يتردّد سالك الطّريق الواسعة التي لا انعطاف فيها ولا يتحيَّر في أمره

(١) الأنعام: ١٥٣.
(٢) الأنعام: ٩٢.
(٣) الأنعام: ١٥٣.

وفي قولـه:{دِيناً} تجريد للاستعارة مؤذن بالمشبّه، وانتصب على الحال من:{صِرَاطَ} لأنَّه نكرة موصوفة

والدّين تقدّم عند قولـه تعالى:{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ}[1] وهو السّيرة التي يتّبعها النّاس

والقَيِّم بفتح القاف وتشديد الياء كما قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: وصف مبالغة قَائم بمعنى معتدل غير معوج، وإطلاق القيام على الاعتدال والاستقامة مجاز، لأنّ المرء إذا قام اعتدلت قامته، فيلزم الاعتدال القيام

والأحسن أن نجعل القيم للمبالغة في القيام بالأمر، وهو مرادف القيّوم، فيستعار القيام للكفاية بما يحتاج إليه والوفاء بما فيه صلاح المقوّم عليه، فالإسلام قيّم بالأمّة وحاجتها، يقال: فلان قيّم على كذا، بمعنى مدبّر لـه ومصلح، ومنه وصف الله تعالى بالقيُّوم، وهذا أحسن لأنّ فيه زيادة على مفاد مستقيم الذي أخذ جزءاً من التّمثيليّة، فلا تكون إعادة لبعض التّشبيه

وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر، والكسائي، وخلف:{قِيماً} بكسر القاف وفتح الياء مخفّفة وهو من صيغ مصادر قام، فهو وصف للدّين بمصدر القيام المقصودِ به كفاية المصلحة للمبالغة، وهذه زنة قليلة في المصادر، وقَلْبُ واوه ياء بعد الكسرة على غير الغالب: لأنّ الغالب فيه تصحيح لامِه لأنَّها مفتوحة، فسواء في خفّتِها وقوعها على الواو أو على الياء، مثل عِوَض وحِوَل، وهذا كشذوذ جياد جمع جواد، وانتصب{قِيماً} على الوصف ل{دِيناً}

وقولـه:{مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} حال من:{دِيناً} أو من:{صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أو عطفُ بيان على{دِيناً}

والملّة: الدّين، فهي مرادفة الدين، فالتَّعبير بها هنا للتَّفنّن ألا ترى إلى قولـه تعالى:{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ}[2]

و{مِلَّةَ} فِعْلة بمعنى المفعول، أي المملول، من أمللت الكتاب إذا لقّنت الكاتب ما يَكتب، وكان حقّها أن لا تقترن بهاء التّأنيث لأنّ زنة (فِعْل) بمعنى المفعول تلزم التّذكير،

(١) آل عمران: ١٩.
(٢) البقرة: ١٣٢.

كالذّبح، إلاّ أنّهم قرنوها بهاء التّأنيث لما صيّروها اسماً للدّين، ولذلك قال الرّاغب: الملّة كالدّين، ثمّ قال: "والفرق بينها وبين الدّين أنّ الملّة لا تضاف إلاّ إلى النّبيء الذي تسند إليه نحو ملّة إبراهيم، ملّة آبائي، ولا توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد الأمّة، ولا تستعمل إلاّ في جملة الشّريعة دون آحادها لا يقال: الصّلاة ملّة الله، أي ويقال: الصّلاةُ دين الله ذلك أنّه يراعى في لفظ الملّة أنّها مملول من الله فهي تضاف للذي أُملِّت عليه

ومعنى كون الإسلام ملّة إبراهيم: أنّه جاء بالأصول التي هي شريعة إبراهيم وهي: التّوحيد، ومسايرة الفطرة، والشّكر، والسّماحة، وإعلان الحقّ، وقد بيَّنتُ ذلك عند قوله تعالى:**{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً}**(١)

والحنيف: المُجانب للباطل، فهو بمعنى المهتدي، وقد تقدّم عند قوله تعالى:**{قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ}**(٢)

وجملة:**{وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ}** عطف على الحال من**{إِبْرَاهِيمَ}** عليه السّلام المضاف إليه، لأنّ المضاف هنا كالجزاء من المضاف إليه

استئناف أيضاً، يتنزّل منزلة التّفريع عن الأوّل، إلاّ أنّه استؤنف للإشارة إلى أنّه غرض مستقلّ مُهمّ في ذاته، وإن كان متفرّعاً عن غيره، وحاصل ما تضمّنه هو الإخلاص لله في العبادة، وهو متفرّع عن التّوحيد، ولذلك قيل: الرياءُ الشّرك الأصغر عُلّم الرّسول ﷺ أن يقوله عقب ما عُلّمه بما ذكر قبله لأنّ المذكور هنا يتضمّن معنى الشّكر لله على نعمة الهداية إلى الصّراط المستقيم، فإنّه هداه ثمّ ألهمه الشّكر على الهداية بأن يجعل جميع طاعته وعبادته لله تعالى وأعيد الأمر بالقول لما علمتَ آنفاً

وافتتحت جملة المقول بحرف التّوكيد: للاهتمام بالخبر ولتحقيقه، أو لأنّ المشركين كانوا يزعمون أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام كان يُرائي بصلاته، فقد قال بعض المشركين لمَّا رأى رسول الله ﷺ يصلّي عند الكعبة: **«ألاَ تنظرون إلى هذا المُرائي أيُّكم يقوم إلى جَزور بني فلان فيعمِد إلى فَرثها وسلاها فإذا سجد وضعه**

(١) آل عمران: ٦٧.
(٢) البقرة: ١٣٥.

بين كتفيه» فتكون (إنّ) على هذا لردّ الشكّ [1]

واللاّم في**{لِلَّهِ}** يجوز أن تكون للملك، أي هي بتيسير الله فيكون بياناً لقولـه:**{إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**[2] ويجوز أن تكون اللام للتعليل أي لأجل الله

وجعل صلاته لله دون غيره تعريضاً بالمشركين إذ كانوا يسجدون للأصنام ولذلك أردف بجملة:**{لاَ شَرِيكَ لَهُ}**

والنّسك حقيقته العبادة ومنه يسمى العابد الناسك

والمحْيَا والممات يستعملان مصدرين ميميين، ويستعملان اسمي زمان، من حيي ومات، والمعنيَان محتمَلان فإذا كان المراد من المحيا والممات المعنى المصدري كان المعنى على حذف مضاف تقديره: أعمال المحيَا وأعمال الممات، أي الأعمال التي من شأنها أن يتلبّس بها المرء مع حياته، ومع وقت مماته وإذا كان المراد منهما المعنى الزمني كان المعنى ما يعتريه في الحياة وبعد الممات

ثمّ إنّ أعمال الحياة كثيرة وفيرة، وأمّا الأعمال عند الموت فهي ما كان عليه في مدّة الحياة وثباتُه عليه، لأنّ حالة الموت أو مدّته هي الحالة أو المدّة التي تنقلب فيها أحوال الجسم إلى صفة تؤذن بقرب انتهاء مدّة الحياة وتلك حالة الاحتضار، وتلك الحالة قد تؤثّر انقلاباً في الفكر أو استعجالاً بما لم يكن يستعجل به الحي، فربّما صدرت عن صاحبها أعمال لم يكن يصدرها في مدّة الصحّة، اتّقاءً أو حياءً أو جلباً لنفع، فيرى أنَّه قد يئس ممّا كان يُراعيه، فيفعل ما لم يكن يفعل، وأيضاً لتلك الحالة شؤون خاصّة تقع عندها في العادة مثل الوصيّة، وهذه كلّها من أحوال آخر الحياة، ولكنّها تضاف إلى الموت لوقوعها بقربه، وبهذا يكون ذكر الممات مقصوداً منه استيعاب جميع مدّة الحياة حتّى زمن الإشراف على الموت

ويجوز أن يكون المراد من الممات ما يحصل للرسول عليه الصّلاة والسّلام بعد وفاته من توجهاته الرّوحيّة نحو أمّته بالدّعاء لهم والتّسليم على من سلّم عليه منهم والظّهور لخاصّة أمَّته في المنام فإنّ للرّسول بعد مماته أحكام الحياة الرّوحيّة الكاملة كما

(١) صحيح مسلم بشرح النووي/ ٣٣٤٩.
(٢) الأنعام: ١٦١.

ورد في الحديث: «**إذا سلّم عليّ أحد من أمّتي رَدّ الله عليّ روحِي فرددتُ عليه السّلام**» وكذلك أعماله في الحشر من الشّفاعة العامّة والسّجود لله في عرصات القيامة فتلك أعمال خاصة به ﷺ وهي كلّها لله تعالى لأنّها لنفع عبيده أو لنفع أتباع دينه الذي ارتضاه لهم، فيكون قوله:**{وَمَمَاتِي}** هنا ناظراً إلى قوله في الحديث: «**حياتي خير لكم ومماتي خير لكم**»

ويجوز أن يكون معنى مماته لله الشهادة في سبيل الله فإن رسول الله ﷺ سمّته اليهودية بخيبر في لحم شاة أطعموه إياه حصل بعض منه في إمعائه ففي الحديث: «**ما زالت أكلة خيبر تعتادني كل عام حتى كان هذا أوان قطع أبْهَري**»

وبقوله:**{وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}** تحقّق معنى الإسلام الذي أصله الإلقاء بالنّفس إلى المُسْلَم له، وهو المعنى الذي اقتضاه قوله:**{فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}**[1]، وهو معنى الحنيفية الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السّلام في قوله:**{إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ}**[2]

وقوله:**{رَبَّ العَالَمِينَ}** صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره، لأنّ غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد**{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}** وجملة:**{لاَ شَرِيكَ لَهُ}** حال من اسم الجلالة مصرّحة بما أفاده جمع التّوكيد مع لام الملك من إفادة القصر والمقصود من الصّفة والحال الردّ على المشركين بأنّهم ما أخلصوا عملهم للذي خلقهم، وبأنّهم أشركوا معه غيره في الإلهيّة**{إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي}** إلخ، أي أنّ ذلك كان لله بهدي من الله وأمرٍ منه، فرجع إلى قوله:**{إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**[3] يعني أنّه كما هداه أمره بما هو شكر على تلك الهداية، وإنّما أعيد هنا لأنّه لما أضاف الصّلاة وما عطف عليها لنفسه وجعلها لله تعالى أعقبها بأنّه هَدْي من الله تعالى، وهذا كقوله تعالى:**{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المُسْلِمِينَ}**[4] وتقديم الجار والمجرور للاهتمام

(١) آل عمران: ٢٠.
(٢) البقرة: ١٣١.
(٣) الأنعام: ١٦١.
(٤) الزمر: ١١، ١٢.

بالمشار إليه

وقولـه:**{وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ}** مثـل قولـه:**{وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ}** خبـر مسـتعمل فـي معنـاه الكنائي، وهو لازم معناه، يعني قبول الإسلام والثبات عليه والاغتباط بـه، لأنّ من أحبّ شيئاً أسرع إليه فجاءه أوّل النّاس، وهذا بمنزلة فعل السبق إذ يطلق في كلامهم على التمكّن والترجّح، كما قال النّابغة:

سَبَقْتَ الرّجالَ الباهشين إلى العلا ::: كسَبْق الجواد اصطادَ قبل الطوارد

لا يريد أنّه كان في المعالي أقدم من غيره لأنّ في أهل المعالي من هو أكبر منه سِنّاً، ومن نال العلا قبل أن يولد الممدوح، ولكنّه أراد أنّه تمكّن من نوال العلا وأصبح الحائز لـه والثابت عليه

وفـي الحـديث: **«نحن الآخِرون السّابقون يوم القيامة»** وهـذا المعنـى تـأييس للمشركين من الطّمع في التّنازل لهم في دينهم ولو أقَلّ تنازلٍ ومن استعمال (أوّل) فـي مثـل هـذا قولـه تعـالى:**{وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}**[1] ولـيس المـراد معنـاه الصّـريحَ لقلّـة جـدوى الخبـر بـذلك، لأنّ كـلّ داع إلـى شـيء فهـو أوّل أصـحابه لا محالـة، فمـاذا يفيـد ذلـك الأعـداء والأتبـاعَ، فـإن أريـد بالمسلمين الـذين اتَّبعـوا حقيقـة الإسـلام بمعنـى إسـلام الوجـه إلـى الله تعـالى لـم يسـتقم، لأنّ إبـراهيم عليـه السّـلام كـان مسـلماً وكـان بنـوه مسـلمين، كمـا حكـى الله عـنهم إذ قـال إبـراهيم عليـه السّـلام:**{فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}**[2] وكـذلك أبنـاء يعقـوب كـانوا مسـلمين إذ قالوا[3]:**{وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}** [4]

{أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبّاً} أى: أغيـر الله - تعـالى - تريـدوننى أن أطلـب ربـاً فأشـركه فـى عبادته، والحال والشأن أنه - سبحانه - هو رب كل شىء ومليكه، وهو الخالق لكل شىء

فجملة**{وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}** حال فى موضع العلة لإنكار ما هم عليه من ضلال

ثم بين - سبحانه - أن كل إنسان مجازى بعملـه فقال:**{وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا}**

(١) البقرة: ٤١.
(٢) البقرة: ١٣٢.
(٣) تفسير ابن عاشور: ١٥٠.
(٤) البقرة: ١٣٦.

أى: لا تجترح نفس إثما إلا عليها من حيث عقابه فلا يؤاخذ سواها به، وكل مرتكب لإثم فهو وحده المعاقب به

{وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى} أى: ولا تحمل نفس مذنبة ولا غير مذنبة ذنب نفس أخرى، وإنما تتحمل الآثمة وحدها عقوبة إثمها الذى ارتكبته بالمباشرة أو بالتسبب

قال القرطبى: وأصل الوزر: الثقل، ومنه قوله تعالى:**{وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ}** وهو هنا الذنب كما فى قوله تعالى:**{وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ}** ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال:**{ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ}** أى: رجوعكم بعد الموت يوم القيامة**{فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}** بتمييز الحق من الباطل، ومجازاة كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر على حسب عمله

ثم ختمت السورة بهذه الآية:**{وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض}** أى: خلائف القرون الماضية، فأورثكم أرضهم لتخلفوهم فيها وتعمروها بعدهم

وخلائف: جمع خليفة، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة، لأنه يخلفه

وقوله:**{وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}** أى: فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وغير ذلك

ثم بين - سبحانه - العلة فى ذلك فقال:**{لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ}** أى: ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم، يختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره، ويختبر الفقير فى فقره ويسأله عن صبره

وفى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»**

ثم رهب - سبحانه - من معصيته، ورغب فى طاعته فقال:**{إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب}** لمن عصاه وخالف رسله**{وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}** لمن أطاعه واتبع سبيل المؤمنين الصادقين[1]

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوى: ١٥٠.

المطلب التاسع:

تبشير موسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

إنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى - عليهما السلام - منذ أمد بعيد جاءهم الخبر اليقين ببعثه، وبصفاته، وبمنهج رسالته، وبخصائص ملته فهو " النبي الأمي»، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وهو يضع عمن يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم، فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به وأتباع هذا النبي يتقون ربهم، ويخرجون زكاة أموالهم، ويؤمنون بآيات الله وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي؛ ويعظمونه ويوقرونه، وينصرونه ويؤيدونه، ويتبعون النور الهادي الذي معه**{أولئك هم المفلحون}**

وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل - على يد نبيهم موسى عليه السلام - كشف الله سبحانه عن مستقبل دينه، وعن حامل رايته، وعن طريق أتباعه، وعن مستقر رحمته فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى - عليه السلام - وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه - يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدين الذي جاء به وفيه التخفيف عنهم والتيسير، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين!

إنها الجريمة عن علم وعن بينة! والجريمة التي لم يألوا فيها جهداً فقد سجل التاريخ أن بني إسرائيل كانوا هم ألأم خلق وقف لهذا النبي وللدين الذي جاء به اليهود أولاً والصليبيون أخيراً وأن الحرب التي شنوها على هذا النبي ودينه وأهل دينه كانت حرباً

خبيثة ماكرة لئيمة قاسية؛ وأنهم أصروا عليها ودأبوا؛ وما يزالون يصرون ويدأبون!

والذي يراجع - فقط - ما حكاه القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين - وقد سبق منه في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ما سبق - يطلع على المدى الواسع المتطاول الذي أداروا فيه المعركة مع هذا الدين في عناد لئيم!

والذي يراجع التاريخ بعد ذلك - منذ اليوم الذي استعلن فيه الإسلام بالمدينة، وقامت له دولة - إلى اللحظة الحاضرة، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود!

ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية في العصر الحديث من ألوان الحرب، والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية وهي في هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته؛ وتحسب أنها تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة لذلك تستخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها - بالإضافة إلى ما استحدثته منها - جملة واحدة!

ذلك في الوقت الذي يقوم ممن ينتسبون إلى الإسلام ناس يدعون في غرارة ساذجة إلى التعاون بين أهل الإسلام وأهل بقية الأديان للوقوف في وجه تيار المادية والإلحاد! أهل بقية الأديان الذين يذبحون من ينتسبون إلى الإسلام في كل مكان؛ ويشنون عليهم حرباً تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في الأندلس - سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة في المستعمرات في آسيا وإفريقية أو عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويسندونها في البلاد (المستقلة!) لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية! تنكر «الغيبية» لأنها «علمية»! و«تطوّر» الأخلاق لتصبح هي أخلاق البهائم التي ينزو بعضها على بعض في «حرية!»، و«تطوّر» كذلك الفقه الإسلامي، وتقيم له مؤتمرات المستشرقين لتطويره

كيما يحل الربا والاختلاط الجنسي وسائر المحرمات الإسلامية!!

إنها المعركة الوحشية الضارية يخوضها أهل الكتاب مع هذا الدين، الذي بشروا به وبنبيه منذ ذلك الأمد البعيد ولكنهم تلقوه هذا التلقي اللئيم الخبيث العنيد!

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}

وهذه الآية التي يؤمر فيها رسول الله ﷺ أن يواجه برسالته الناس جميعاً، هي آية مكية في سورة مكية وهي تجبه المزورين من أهل الكتاب، الذين يزعمون أن محمداً ﷺ لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشاً، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب وليست البلية في أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله وأن يكون «المستشرقون» الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله إنما البلية الكبرى أن كثيراً من السذج الأغرار ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين يتخذون من هؤلاء المزوّرين على نبيهم ودينهم المحاربين لهم ولعقيدتهم، أساتذة لهم، يتلقون عنهم في هذا الدين نفسه، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه، ثم يزعم هؤلاء السذج الأغرار لأنفسهم أنهم "مثقفون"!

* * * * *

المطلب العاشر:

ألوان التهديد والعقاب لبني إسرائيل!!!

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[1]

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}

فهو إذْنُ الأبد الذي تحقق منذ صدروه؛ فبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب والذي سيظل نافذاً في عمومه، فيبعث الله عليهم بين آونة

(١) الأعراف: ١٦٧ - ١٧١.

وأخرى من يسومهم سوء العذاب وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة، الناكثة العاصية، التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية؛ ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف

ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت، وأن يهود قد عزت واستطالت! وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة التالية، وما بعدها إلى يوم القيامة

لقد تأذن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة - كما أخبر الله نبيه في قرآنه - معقباً على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه في العذاب والرحمة

{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمته بالعذاب - كما أخذ القرية التي كانت حاضرة البحر - وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يثوب من بني إسرائيل، ممن يتبعون الرسول النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم، في التوراة والإنجيل فليس عذابه - سبحانه - عن نقمة ولا إحنة إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه، ووراءه المغفرة والرحمة

ثم تمضي خطوات القصة مع خطوات التاريخ، من بعد موسى وخلفائه، مع الأجيال التالية في بني إسرائيل إلى الجيل الذي كان يواجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة في المدينة:

{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ}

وهذه بقية الآيات المدنية الواردة في هذا السياق تكملة لقصة بني إسرائيل من بعد موسى

ذلك حين تفرق اليهود في الأرض؛ جماعات مختلفة المذاهب والتصورات، مختلفة المشارب والمسالك فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات تارة بالنعماء وتارة بالبأساء، لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويستقيمون على طريقهم:

{وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}

والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد، وتذكير دائم لهم، ووقاية من النسيان المؤدي إلى الاغترار والبوار

{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ}

وصفة هذا الخلف الذي جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى: أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ وكلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه، ثم تأولوا وقالوا:**{سَيُغْفَرُ لَنَا}** وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد!

ويسأل سؤال استنكار:

{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق فما بالهم يقولون:**{سَيُغْفَرُ لَنَا}** ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقاً؛ ويقلعون عن المعصية فعلاً؛ وليس هذا حالهم، فهم يعودون كلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه!

بلى! ولكن الدراسة لا تجدي ما لم تخالط القلوب وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة؛ ولا يأخذونه عقيدة؛ ولا يتقون الله ولا يرهبونه؟!

{وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}

نعم! إنها الدار الآخرة! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة

وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها؛ ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتنأى؟ والشر يتبجح والباطل يطغى؟

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويترفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين

وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذي يريد دعاة «الاشتراكية العلمية» أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا؛ ويحلوا محله تصوراً كافراً جاهلاً مطموساً يسمونه: «العلمية»

ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة، وتفسد النفوس؛ وينطلق السعار المجنون الذي لا يكبحه إلاّ ذلك اليقين ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع والطغيان وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة في كل مجال

إن «العلمية» التي تناقض «الغيبية» جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر جهالة يرجع عنها «العلم البشري» ذاته، ولا يبقى يرددها في القرن العشرين إلا الجهال! جهالة تناقض فطرة «الإنسان» ومن ثم تفسد «الحياة» ذلك الإفساد الذي يهدد البشرية بالدمار! ولكنه المخطط الصهيوني الرهيب الذي يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاحها ليسهل تطويعها لملك صهيون في نهاية

المطاف! والذي ترردده الببغاوات هنا وهناك، بينما الأوضاع التي أقامتها الصهيونية وكفلتها في أنحاء الأرض تمضي عن علم في تنفيذ المخطط الرهيب هنا وهناك!

ولأن قضية الآخرة، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة، يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى عرض الحياة الدنيا إلى العقل:

{وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}

ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوى ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هو الذي يقضي لكانت الدار الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً:

{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ}

وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه؛ ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذي درسوه، ولا يعملون به، ولا يحكمونه في تصوراتهم وحركاتهم؛ ولا في سلوكهم وحياتهم

غير أن الآية تبقى - من وراء ذلك التعريض - مطلقة، تعطي مدلولها كاملاً، لكل جيل ولكل حالة

إن الصيغة اللفظية:**{يُمَسِّكُونَ}** تصور مدلولاً يكاد يحس ويرى إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه في غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر ولكنها تنافي التميع! ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار! ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون «الواقع» هو الحكم في شريعة الله! فهو الذي يجب أن يظل محكوماً بشريعة الله!

والتمسك بالكتاب في جد وقوة وصرامة؛ وإقامة الصلاة - أي شعائر العبادة - هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقروناً إلى الشعائر يعني مدلولاً معيناً إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة

والنفوس، ولا تصلح بسواه والإشارة إلى الإصلاح في الآية:

{إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ}

يشير إلى هذه الحقيقة حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس؛ وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص، كالذي كان يصنعه أهل الكتاب؛ وكالذي يصنعه أهل كل كتاب، حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله

إنه منهج متكامل يقيم الحكم على أساس الكتاب؛ ويقيم القلب على أساس العبادة ومن ثم تتوافى القلوب مع الكتاب؛ فتصلح القلوب، وتصلح الحياة

إنه منهج الله، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجاً آخر، إلا الذين كتبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب!

وفي ختام حلقات القصة في هذه السورة يذكر كيف كان الله قد أخذ على بني إسرائيل الميثاق:

{وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}

إنه ميثاق لا ينسى فقد أخذ في ظرف لا ينسى! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق؛ فأعطوه في ظل خارقةٍ هائلةٍ كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس ولقد أمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يستمسكوا به في شدةٍ وصرامةٍ، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقي وتظل موصولة بالله لا تنساه!

ولكن إسرائيل هي إسرائيل! نقضت الميثاق، ونسيت الله، ولجت في المعصية، حتى استحقت غضب الله ولعنته وحق عليها القول، بعدما اختارها الله على العالمين في زمانها، وأفاء عليها من عطاياه فلم تشكر النعمة، ولم ترع العهد، ولم تذكر الميثاق، وما

ربك بظلام للعبيد [1]

قال ابن عباس: (اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به، وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله - تعالى - به، وحرم عليهم الصيد فيه، وأمرهم بتعظيمه، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا فى السبت المقبل، وذلك بلاء ابتلاهم الله به، فذلك معنى قوله تعالى:**{وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ}**

وقال الإمام القرطبى: (وروى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود - عليه السلام - وأن إبليس أوحى إليهم فقال إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد)

وقوله تعالى:**{كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}** معناه: بمثل هذا الابتلاء، وهو ظهور السمك لهم فى يوم السبت، واختفائه فى غيره نبتليهم ونعاملهم معاملة من يختبرهم، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم، وتحايلهم القبيح على شريعتهم، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعة سهل له أمور دنياه، وأجل له ثواب أخراه، ومن عصاه أخذه أخذ عزيز مقتدر

ثم بين - سبحانه - طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال تعالى:**{وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}**

والذى يفهم من هذه الآية الكريمة، - وعليه جمهور المفسرين - أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق:

١ -فرقة المعتدين فى السبت، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار

٢ -فرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تعديهم وفسوقهم

٣ -فرقة اللائمين للناصحين ليأسهم من صلاح العادين فى السبت

وهذه الفرقة الثالثة هى التى عبر القرآن الكريم عنها بقوله:**{وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ**

(١) الظلال: ١٧١.

تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً} أى: قالت فرقة من أهل القرية، لإخوانهم الذين لم يألوا جهدا فى نصيحة العادين فى السبت، لم تعظون قوما لا فائدة من وعظهم ولا جدوى من تحذيرهم، لأن الله تعالى قد قضى باستئصالهم وتطهير الأرض منهم، أو بتعذيبهم عذاباً شديداً، جزاء تماديهم فى الشر، وصممهم عن سماع الموعظة فكان رد الناصحين عليهم:**{مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}**

فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين بعلتين:

الأولى: الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير فى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

والثانية: الأمل فى صلاحهم وانتفاعهم بالموعظة حتى ينجو من العقوبة، ويسيروا فى طريق المهتدين

وقيل: إن أهل القرية كانوا فرقتين، فرقة أقدمت على الذنب فاعتدت فى السبت، وفرقة أحجمت عن الإقدام، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت الفرقة الواعظة على نصيحتها للفرقة العادية، قالت لها الفرقة العادية على سبيل التهكم والاستهزاء: لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً فى زعمكم؟ فأجابتهم الناصحة بقولها:**{مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}**

والذى نرجحه أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرين - لأن هذا هو الظاهر من الضمائر فى الآية الكريمة، إذ لو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية (ولعلكم تتقون) بكاف الخطاب، بدل قولهم:**{وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}** الذى يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللائمة، والفرقة الناصحة

قال الإمام القرطبى عند تفسيره الآية الكريمة: إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق، فرقة عصت وصدت، وكانوا، نحوا من سبعين ألفاً، فرقة نهت واعتزلت، وكانوا نحوا من اثنى عشر ألفاً، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص، وأن هذه الطائفة هى التى قالت للناهية، لم تعظون قوما - عصاة - الله مهلكهم، أو معذبهم على غلبة الظن وما عهد حينئذ من فعل الله تعالى بالأمم العاصية؟)

وقوله:**{مَعْذِرَةً}** بالنصب على أنها مفعول لأجله أى: وعظناهم لأجل المعذرة، أو

منصوبة على أنها مصدر لفعل مقدر من لفظها أى: نعتذر معذرة وقرئت: " معذرة " بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى: موعظتنا معذرة وقد اختار سيبويه هذا الوجه وقال فى تعليله: لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنفاً ولكنهم قيل لهم: لم تعظون؟ فقالوا: موعظتنا معذرة

ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية فقال تعالى:**{فَلَماَّ نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السواء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ}** أى: فلما لج الظالمون فى طغيانهم، وعموا وصموا عن النصيحة أنجينا الناصحين، وأخذنا العادين بعذاب شديد لا رحمة فيه بسبب خروجهم على أوامر الله

والآية الكريمة صريحة فى بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجوا هم الناهون عن السوء، أما الفرقة الثالثة التى لامت الناهين عن السوء على وعظهم للمعتدين، فقد سكتت عنها

ويرى بعض المفسرين: أنها لم تنج، لأنها لم تنه عن المنكر فضلا عن أنها لامت الناصحين لغيرهم

ويرى جمهور المفسرين: أنها نجت، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون فى السبت ولم ترتكب شيئاً مما ارتكبوه، وإذا كانت قد سكتت عن النصيحة، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه، فلا جدوى وراء وعظهم، وإلى هذا الرأى ذهب صاحب الكشاف وغيره

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: الأمة الذين قالوا: لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً - من أى الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم من فريق المعذبين

قلت: من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين، غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم وإذا علم الناهى حال المنهى، وأن النهى لا يؤثر فيه، سقط عنه النهى، وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه، كان ذلك عبثاً منك، ولم يكن إلا سبباً للتلهى بك، أما الآخرون فإنهم لم يعرضوا عنهم، إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين، ولم يخبرهم كما خبروهم أو لفرط حرصهم وجدهم فى أمرهم، كما وصف الله

تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فى قولـه:**{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً}** وقال الإمام ابن كثير: (ويروى عن ابن عباس - رضـى الله عنهمـا - أنـه قـال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة، ما أدرى ما فعل بهم، ثم صار إلى نجاتهم لما قال لـه غلامه عكرمة: ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقال:**{لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً}** قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكسانى حلة)

والذى نرجحه أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله، لأنـه لم يرد نص صحيح فى شأنها، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ولم تذكر مصير الفرقة اللائمة للناصحين ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين ولم تذكر فى السبت موقفاً سلبياً استحقت معه الإهمال، إن لم تكن بسببه أهلا للمؤاخذة

ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى أصابهم فقال تعالى:**{فَلَماَّ عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ}** أى فلما تكبروا عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون، قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك

قال الآلوسى: (والأمر فى قولـه تعالى:**{قُلْنَا}** تكوينى لا تكليفى، لأنـه ليس فى وسعهم حتى يكلفوا بـه، وهذا كقولـه تعالى:**{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** فى أنه يحتمل أن يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل)

وقيل فى تفسير الآية: إن الله تعالى - عاقب القوم أولا بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى المعيشة، فلما لم يرتدعوا ويتوبوا إلى رشدهم، مسخهم مسخا خِلقيا وجسميا، فكانوا قردة على الحقيقة، وهو الظاهر من الآية، وعليه الجمهور:

وقيل: مسخهم مسخاً خُلقياً ونفسياً، فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها، وهذا مروي عن مجاهد

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى المعاصى، وتأبيهم عن قبول النصحية، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان، فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان[1]

* * * * *

(١) تفسير سيد طنطاوي/ ١٥٥.